

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

حين ينتظم الكون في طاعة الله وتسقط فوضى الآلهة

رحلة في صفوف الملائكة، ومصارع المكذّبين،
ويقين الأنبياء، وسرّ التسليم العظيم

تأليف : رَدَاد السَّلَامِي

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

حين ينتظم الكون في طاعة الله وتسقط فوضى الآلهة

رحلة في صفوف الملائكة، ومصارع المكذّبين، وبقين الأنبياء، وسرّ التسليم العظيم

تأليف: رَدَادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة روحية

على عتبة السورة

ليست سورة الصفات حديثاً عن عالم بعيدٍ عن الإنسان، وإن ازدحت سماؤها بالملائكة، وارتجت أرضها بمشاهد القيامة، وتعاقبت في آفاقها مواكب الأنبياء. إنها سورة تنزل إلى أعمق موضع في النفس؛ إلى ذلك الموضع الذي تتصارع فيه إرادة الله مع أهواء العبد، ويقف فيه اليقين وجهاً لوجه أمام غواية الشك، وتُختبر فيه حقيقة التوحيد: أهو كلمة تُقال، أم صفٌ ينتظم فيه القلب كله خلف أمر الله؟ إنها سورة النظام الإلهي في مواجهة الفوضى البشرية.

تبدأ بصفوف لا اضطراب فيها، وتنتهي بتسبيح لا شائبة فيه. وبين الصفوف والتسبيح رحلة طويلة من التصفية: تصفية العقيدة من الشرك، والضمير من التردد، والتاريخ من أوهام القوة، والقلب من كل محبوب يزاحم الله في مقام الطاعة.

في مطلعها ملائكة صافات، زاجرات، تاليات؛ كأن الكون العلوي قد أخذ مكانه في محراب العبودية، لا يتأخر فيه أحد عن مقامه، ولا ينازع أحد أمر ربه. ثم نلتفت إلى الأرض، فإذا البشر قد بعثوا صفوف أرواحهم، ونصبوا من دون الله آلهة، واخترعوا للكون أرباباً متفرقين، وجعلوا لله نسباً مما يكرهون لأنفسهم، واستكثروا على خالق السماوات أن يبعثهم بعد موتهم.

هناك، في السماء، طاعة وانسجام. وهنا، في الأرض، جدال وتمرد وتيه.

ومن بين هذا التناقض تولد رسالة السورة: لن يستقيم الإنسان حتى يصطف قلبه كما تصطف الملائكة، وحتى يكف هواه عن التشوش على نداء الوحي، وحتى يصبح التوحيد في داخله نظاماً كاملاً للحب والخوف والرجاء والطاعة.

وسورة الصافات من السور التي تهزُّ القارئ بالمشهد، كما تهديه بالمعنى. لا تكتفي بأن تخبره عن القيامة، بل تقيمه بين أهلها؛ يسمع تخصمهم، ويرى تدافعهم، ويشهد انقلاب التابع على المتبوع، وينظر من وراء حجاب الجنة إلى قعر الجحيم. ولا تكتفي بأن تخبره عن الأنبياء، بل تُدخله إلى اللحظة التي بلغ فيها يقينهم منتهاه: نوح ينادي في بحر التكذيب، وإبراهيم يقف وحده أمام أمة من الأصنام، ثم يمضي بابنه إلى موضع الذبح، وموسى وهارون يواجهان سلطان الطغيان، وإلياس ينادي قومًا أضاعوا ربهم بين تماثيل الباطل، ولوطٌ يخرج من قرية أفسد الشذوذ فطرتها، ويونسُ يغيب في الظلمات ثم تنقذه كلمة التسييح.

إنها ليست قصصاً متجاورة، بل وجوهٌ متعددة لحقيقة واحدة:

أن الله لا يخذل من اصطفَّ معه، وإن بدا وحيداً.

وأن الباطل لا ينجو بكثرة أتباعه، وإن بدا مالكا للأرض.

وأن العاقبة ليست لما تراه العيون في أول الطريق، بل لما قضت به كلمة الله في آخره.

سمضي في هذه السورة لا لتعدَّ القصص، بل لنصغي إلى النبض الذي يجري بينها؛ ذلك

النبض الذي يقول للقلب المتعب في كل عصر: اصبر، فإنك لست وحدك في طريق

اليقين. لقد سار من قبلك أنبياء الله، وضائق بهم الأرض، وأحاطت بهم السخريّة،

ووقفوا أمام المستحيل البشري، ثم جاءهم نداء السماء:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

حين تصطفُ الملائكة ويتعلم القلب معنى النظام
من قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾

تدخل السورة على القلب بجرسٍ حاسم، قوي، متتابع:
﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿.
ثلاث حركات متوالية، ثم حقيقةٌ كبرى.
صفٌّ، فزجرٌ، فتلاوةٌ، فتوحيد.

وكأن السورة تقول: إن الوصول إلى حقيقة الوحدةانية يحتاج إلى نفسٍ خرجت من
فوضاها؛ نفسٍ عرفت موضعها، وزجرت فيها نوازع التردد، وأصغت إلى الذكر حتى صار
نوراً يقودها.

القَسَمُ هنا بخلقوقات من عالم الغيب، قيل: هي الملائكة تصطفُ في طاعة ربها، لا يزاحم
بعضها بعضاً، ولا يتقدم فيها مأمورٌ على أمره، ولا تتحول الوظيفة فيها إلى نزاعٍ على
المكانة. لكلِّ مقامه، ولكلِّ عبادته، وكلهم مجتمعون في خضوعهم لله.
إنها صورةٌ مهيبةٌ للعبودية حين تتحول إلى نظام.

ليست الطاعة في التصور القرآني انفعالاً عابراً يزور القلب ثم ينصرف، بل اصطفاً
كاملاً: أن يقف الفكر في موضعه، والشهوة في موضعها، والغضب في موضعه، والحب في
موضعه، وأن تكون القيادة كلها للوحي. أما حين نتقدم الشهوة لتقود، ويتأخر العقل
ليبرر، ويستدعى الدين ليبارك، فهناك تنكسر الصفوف في داخل الإنسان، ولو ظل لسانه
يعلن الإيمان.

كم يحتاج الإنسان اليوم إلى أن يعيد ترتيب صفوفه الداخلية!
نعيش في عالمٍ يعلم المرء أن يلاحق كل نداء، وأن يستجيب لكل رغبة، وأن يوزع قلبه
بين الشاشات والأخبار والخاوف والمطامع. ينام وفي صدره عشرات الأصوات،
ولستيقظ وقد فقد القدرة على سماع صوته الأعظم. تتزاحم الأشياء في روحه حتى لا
يبقى لله فيها مقامٌ ظاهر، لا لأنه أنكر ربه، بل لأنه لم يعد يصطف بين يديه.

وتأتي الصفات لتعيد إلى القلب هندسته:
قف.

اعرف من أملك.

واعرف أين موضعك.

ثم دع كل شيء فيك ينتظم تحت حقيقة واحدة:

﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

إنه واحدٌ في الخلق، وواحدٌ في الأمر، وواحدٌ في الاستحقاق، وواحدٌ في المقصد. فلا تنزع الروح بين أربابٍ متفرقين: ربّ ترضيه في المسجد، وربّ ترضيه في السوق، وربّ تخشاه في السياسة، وربّ تقترب إليه في موطن الشهرة. ليس التوحيد أن تنكر الصنم المجري وحده، بل أن ترفض كل سلطة تريد أن تحتلّ في ضميرك مقام الله. وحين يقول القرآن: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، فإنه لا يقدم معلومةً باردة، بل يحرر الإنسان من التمزق. لأن تعدد الآلهة الظاهرة أو الخفية يعني تعدد الجهات التي تستعبدك، وتعدد المخاوف التي تطاردك، وتعدد المقاييس التي تحاكم نفسك بها. أما الواحد، فيجمع شتاتك؛ فلا تعود ممزقاً بين رضا الناس ورضاه، ولا بين صورتك أمام الخلق وحقيقتك أمام الخالق.

التوحيد سكينَةٌ؛ لأن القلب لا يستطيع أن يسير طويلاً في اتجاهاتٍ متناقضة. وهو قوّة؛ لأن من عرف أن إلهه واحدٌ لم يعد يتسول المعنى من أبوابٍ كثيرة. وهو كرامةٌ؛ لأن العبد الذي سجد للواحد قام من سجوده حراً من كل ما سواه.

السماء المحروسة: حين لا يكون الغيبُ ساحةً لأوهام البشر
 من قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾
 بعد تقرير الوجدانية، تنفتح أمامنا آفاق الملك:
 ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ
 الْكَوَاكِبِ﴾ ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾.
 إنه رب السماوات والأرض، لكن السورة لا تكتفي بهذه الإحاطة، بل تقول: ﴿وَرَبُّ
 الْمَشَارِقِ﴾.

والمشارق جمع؛ لأن النور لا يشرق على الأرض من موضع واحد ثابت، بل تتعدد
 مشارقه بتعدد الأيام والفصول والمواقع. وكل شروق جديد شاهدٌ جديد على الربوبية.
 الشمس التي تبدو للغافل ظاهرةً مكرورة، يراها القرآن فعلاً إلهياً يتجدد، ومشرقاً من
 مشارق السلطان.

ما أكثر ما يعتاد الإنسان النعمة حتى يفقد القدرة على رؤيتها!
 تمرُّ عليه الشمس كل صباح، فلا يشعر أن يد القدرة قد شقت بها ظلام العالم. ويستيقظ
 قلبه بعد حزن، فلا يرى في عودة الرجاء شروقاً آخر. إن الله في الكون مشارق، وله في
 الأرواح مشارق: فكرةٌ تنير بعد حيرة، وطمأنينةٌ تولد بعد خوف، وتوبةٌ تنبت من بين
 ركام الخطيئة، وريقين يطلع من أبعد نقطة في ليل الابتلاء.
 ثم السماء مزينةٌ بالكواكب، لكنها ليست زينةً سائبة. الجمال هنا محروس، والنظام
 محفوظ، والغيب ليس مرتعاً للشياطين.

تجمع الآيات بين الزينة والحفظ؛ بين جمال السماء وهيبه سلطانها. فما خلق الله الجمال
 ضعفاً، ولا جعل الحسن منفصلاً عن القوة. الكواكب مصابيحٌ للعين، وعلاماتٌ
 للعقل، وفي السياق حراسةٌ لأفق الوحي من عبث المردة.

وكانت الجاهلية تملأ الغيب بالكهانة والخرافة، وتزعم أن الشياطين تحمل إليها أسرار السماء، فتأتي السورة لتطهر تصور الإنسان عن الغيب. فالغيب لله، والوحي من عنده، والسماء ليست سوقاً مفتوحةً للمتنبئين والدجالين.

وهذه الجاهلية لا تموت؛ إنما تغير ثيابها.

فكل عصرٍ يصنع كهانه: منجماً يربط المصائر بحركة الأبراج، أو متنبئاً يزعم امتلاك أسرار المستقبل، أو صاحبَ خطابٍ يتسلل إلى خوف الإنسان فيبيعه الوهم باسم المعرفة. وحين يضعف اليقين بالله، لا يعيش القلب بلا غيب، بل يصنع لنفسه غيباً مزيفاً.

الإنسان مفطورٌ على طلب ما وراء الحاضر، فإن لم يهده الوحي إلى غيبٍ طاهر، استعبده الخرافة.

ولهذا تحرس السورة أبواب السماء في ضمير المؤمن، فلا يسمح لوهمٍ أن يتسلل إلى عقيدته، ولا لدجالٍ أن يشاركه ثقته بربه. إنه يعلم أن المستقبل في علم الله، وأن القدر في يده، وأن ما حُجِبَ عنه لم يُحْجَبْ نقصاً في الرحمة، بل رحمةً بعقله وقلبه، كي يعمل بما يعلم ويتوكل فيما لا يعلم.

الطين الذي يجادل خالق النجوم
 من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ إلى قوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾
 بعد أن رفعت السورة أبصارنا إلى السماء والكواكب، أعادتنا إلى الإنسان، لا لتحقّره،
 بل لتفصح تناقض كبريائه:
 ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾.
 يا للمفارقة!

سماءٌ مترامية، وكواكبٌ معلقة في فضاء هائل، ومشارك لا يحصيها البشر؛ ثم يقف
 مخلوقٌ من طينٍ لاصقٍ يجادل في قدرة خالقها على أن يعيده بعد الموت!
 إن السورة لا تناقش شبهة البعث في فراغ، بل تضعها أمام حجم الكون. من خلق
 الأعظم لا يعجزه الأصغر، ومن أنشأ البداية لا تعجزه الإعادة. لكن المشكلة لم تكن
 دائماً نقص الدليل؛ فكثيراً ما تكون الشبهة ستاراً لرغبة الإنسان في الهروب من الحساب.
 المكذب بالبعث لا يرفض خبراً عن المستقبل فحسب، بل يريد حاضراً بلا مسؤولية. يريد
 أن تتحول الحياة إلى فرصة مفتوحة للشهوة، لا يعقّبها سؤال، وأن يمضي الظالم بظلمه كما
 يمضي المحسن بإحسانه، ثم يطوي التراب الجميع ولا يبقى وراءه ميزان.
 لكن إنكار الآخرة لا يقتل الآخرة؛ إنما يقتل معنى الحياة في قلب من ينكرها.
 ويعرض القرآن موقفهم:

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۖ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۖ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾.
 السخرية هنا ليست قوةً فكرية، بل وسيلة دفاع نفسي. فالإنسان حين يعجز عن مواجهة
 الحقيقة قد يحاول تصغيرها بالضحك. يسخر كيلاً يخشع، ويستعزئ كيلاً يعترف، ويحول
 الآية إلى مادةٍ للتهكم حتى لا تتحول إلى مرآةٍ يرى فيها نفسه.

وما تزال السخرية من أفتك أسلحة الباطل؛ لأنها لا تدخل مع الفكرة في حوار، بل تحاول إسقاط هيتها من النفوس. والكلمة التي لا يستطيعون ردها بالحجة، يحاصرونها بالضحكات. غير أن الحقيقة لا تفقد حقيقتها لأن المستهزئين ضحكوا، كما لا تنطفئ الشمس لأن أعمى أنكر ضوءها.

ثم تأتي الصيحة:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

زجرة واحدة.

لا يحتاج بعث البشر إلى جهدٍ يتناول، ولا إلى زمنٍ يعجز عنه السلطان الإلهي. أمرٌ واحد، فإذا الأجساد التي تفرقت في التراب قائمة، وإذا العيون التي أغمضها الموت مفتوحة، وإذا الساخرون الذين كانوا يطلبون البرهان قد صاروا داخل البرهان.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.

كانت القيامة في الدنيا خبراً يستهزون به، فأصبحت واقعاً يسمونه بالسنتهم. وشتان بين معرفة تنفع قبل وقوع الحقيقة، ومعرفة لا تولد إلا بعد فوات زمن العمل.

هنا تضع السورة يدها على مأساة التسويف: أن يعرف الإنسان حين لا تنفع المعرفة، وأن يرى حين تنتهي فرصة الاختيار، وأن يعترف بعدما صار الاعتراف جزءاً من العقوبة.

إن الإيمان بالآخرة ليس دعوةً إلى الخوف المرّضي من المستقبل، بل إلى تحرير الحاضر من العبث. فمن رأى يوم الدين في أفقه، اتزن ميزانه اليوم؛ فلا يبيع ضميره بلذة، ولا يقايض آخرته بتصفيق، ولا يحزن طويلاً إن فاته شيءٌ من الدنيا، لأنه يعلم أن الرواية لم تنته بعد.

حين تسقط الزعامات ويتخاصم أهل الضلال
من قوله تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾
يتحول المشهد من الدهشة إلى الحشر:

﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى
صِرَاطِ الْجَنَّةِ ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾.
يا لها من كلمة تهز القلب: ﴿وَقَفُّهُمْ﴾.

كانوا في الدنيا يمشون ولا يلتفتون، يعبرون حدود الله مسرعين، ويظنون أن الحركة
الدائمة تنجيهم من السؤال. فإذا بالقيامة توقف ذلك الاندفاع كله: قفهم. انتهى زمن
الفرار، وبدأ زمن الحساب.
﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾.

الإنسان مسؤول؛ وتلك هي كرامته ومخافته معاً. لم يخلقه الله شيئاً مهملاً في زاوية
الوجود، بل منحه عقلاً وإرادةً وسمعاً وبصراً، ثم أقام عليه الحجة. والسؤال يوم القيامة
ليس مفاجأة لمن عاش في نور الوحي؛ إنما هو انكشاف نهائي لسؤال كان ينبغي أن
يصحبه في كل قرار: لماذا أفعل؟ ولمن؟ وإلى أين؟
ثم يواجهون بتلك السخريّة الكاشفة:
﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

أين الأحلاف التي كانت تبدو عصية على الانهيار؟ أين الزعماء الذين أقنعوا أتباعهم
بأنهم يملكون لهم النفع والضرر؟ أين الجماهير التي صنعت للطغاة هالاتهم، ثم احتمت
بالطغاة من مسؤوليتها؟
﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

لقد سقطت صناعة القوة كلها. لا شعارات، ولا مواكب، ولا حراس، ولا جماهير
مصقّفة؛ إنما استسلامٌ كامل أمام الحق الذي قاوموه طويلاً.

ثم يبدأ التخاصم:
﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

إن الجماعة التي اجتمعت على الباطل في الدنيا لا تبقى جماعةً في الآخرة. ما جمعته المصلحة تفرقه المسؤولية، وما وحدته الشهوة يمزقه العذاب. يبدأ الأتباع باتهام القادة، ويرد القادة بأن الأتباع لم يكونوا مؤمنين أصلاً، وأنهم اختاروا الطغيان بإرادتهم.
﴿حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ فَأَغْوَيْنَا كُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿.

إنها لحظة سقوط الأعداء.

القائد المضل مسؤول، والتابع الذي سلّمه عقله مسؤول. ليس في الإسلام تفويض للضمير، ولا طاعة ترفع عن الإنسان تبعه اختياره. من حق المرء أن يسترشد، لكنه لا يملك أن يهب إنسانيته لغيره، ثم يقول يوم الحساب: كنت تابعاً.
كم من إنسان اليوم يختبئ داخل الجماعة هرباً من السؤال! يردد ما يردده الناس، ويغضب لما يغضبون له، ويصادق ويصادي بإشاراتٍ جاهزة، حتى يذوب صوته الأخلاقي في ضجيج الجمهور. وتأتي السورة لتسترده من ذلك الذوبان: ستقف فرداً، وستُسأل فرداً، ولن يحمل عنك صخبُ الجماعة تبعه الصمت أو الانحراف.
العقيدة لا تريد منك أن تكون نسخةً من الآخرين، بل عبداً لله، والعبد لله لا يؤجر عقله للطاعة، ولا يبيع ضميره للجموع.

الكلمة التي استكبروا عنها

من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾

تصل السورة إلى أصل الداء:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّمَا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ.

لم تكن المشكلة أن عبارة التوحيد غامضة. كانوا يفهمونها أكثر مما يفهمها كثيرٌ ممن يرددونها بلا أثر. فهموا أن قول: لا إله إلا الله ليس إضافة إله جديد إلى قائمة الآلهة، بل إلغاء القائمة كلها. فهموا أنها تنزع القداسة عن الأصنام، والسلطان المطلق عن الزعماء، وحق التشريع الأعلى عن البشر، وتحرر الإنسان من كل عبودية سوى عبوديته لخالقه. ولهذا استكبروا.

إن التوحيد ثقيلٌ على النفس التي تريد أن تبقى إلهاً صغيراً في عالمها. قد يقبل الإنسان الحديث عن الله ما دام لا يقترب من شهوته، ولا يراجع مصالحه، ولا يعيد ترتيب ولائاته. فإذا قيل له: إن لله وحده الحق في أن يكون غاية قلبك وحاكم حياتك، ظهرت الأصنام التي خبأها تحت لغته الدينية.

ولكل عصرٍ آلهته التي يخشى الناس تركها: مالٌ يحدد قيمتهم، وشهرةٌ تمنحهم شعور الوجود، وزعيمٌ يعطى من الطاعة ما لا يكون إلا لله، وهوىٌ يُعاد تفسير النصوص كيلا يصطدم به.

و«لا إله إلا الله» لا تدخل القلب لتسكن بجانب هذه الأرباب، بل تدخل لتطردها. لذلك كانت كلمةً فاصلة، لا زخرفةً روحية. إنها تعيد بناء الإنسان من مكره؛ فلا يرى الخير خيراً لأن المجتمع صفق له، ولا الباطل باطلاً لأن جماعته خاصمته، بل يزن الأشياء بميزان الله.

ولما عجزوا عن مواجهة الرسالة وصفوا الرسول ﷺ بالشعر والجنون. وهي تهمة متناقضة؛ فالشاعر صاحب صناعة ووعي وتخيل، والجنون فاقد الاتزان. لكن الباطل لا يبحث عن تهمة منسجمة، بل عن أي غبارٍ يحجب به وجه الحقيقة. فيأتي الرد هادئاً قاطعاً:

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

الحق لا يحتاج إلى حجبٍ ليثبت. يكفي أن يوضع في مقابل التهم حتى تتهاوى. وهذه الرسالة ليست شذوذاً في تاريخ السماء، بل تصديق لموكب النبوات كله. لقد جاء محمد ﷺ بالكلمة ذاتها التي حملها نوح وإبراهيم وموسى وسائر الرسل: أن اعبدوا الله وحده، وأن الإنسان لا يستقيم ما دام قلبه موزعاً بين الآلهة.

ثم تقرر العدالة:

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

لا ظلم في المصير. إنما يلقي الإنسان في الآخرة الحقيقة الباطنة لما صنعه في الدنيا. فالعمل لا يختفي بانتهاء لحظة؛ إنه ينسج صاحبه، ويصنع وجهته، ثم يستقبله في النهاية وقد صار جزاءً.

وهذه من أعمق حقائق المسؤولية: نحن لا نفعل الأفعال ثم نتركها وراءنا، بل نحملها فينا، ونصير - شيئاً فشيئاً - الصورة التي ترسمها اختياراتنا.

عباد الله المخلصون: حين يصير الرزق كرامة لا فتنة من قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لِئَلَّيْ هَذَا فَيَلْعَمَ الْعَامِلُونَ﴾ فجأة ينشق المشهد الداكن عن نور: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أولئك لهم رزق معلوم ﴿فَوَاكِهَ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ في جنات النعيم ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. لم يقل: لهم رزق فغضب، بل قال: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾.

فالجنة ليست إشباعاً للحواس وحدها؛ إنها ترميم كامل لكرامة المؤمن. كم من مخلص عاش في الدنيا مجهولاً، أو ناله الأذى، أو سُخر من يقينه، أو حُرِمَ من أشياء كان يراها تندفق على أهل الباطل! هناك يعلم أن الله لم ينس دمه كتمها، ولا شهوة تركها، ولا موقفاً ثبت فيه حين اضطرب الناس. والنعيم في الآيات ليس عزلة باردة: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.

لا تدابر، ولا خصومة، ولا خوف من نظرة الآخر، ولا قلوب تخفي ما لا تقوله. إنهم متقابلون؛ لأن الجنة طهرت النفوس من الحواجز التي تجعل البشر متجاورين بالأجساد، متباعدين بالأرواح.

ثم يأتي الشراب: ﴿بِضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون. إنها لذة منزوعة الأذى. فنعم الدنيا قلباً يصفو؛ كل لذة تحمل معها خوف زوالها، أو ألم تبعثها، أو نقصها الذي يترك في النفس جوعاً جديداً. أما الجنة، فهي صفاء اللذة من كل ما كان يكدرها.

وبين أهل الجنة رجلٌ يتذكر قريناً كان يشككه في البعث:

﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلَعُونَ﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ تُتْرَدِينَ﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿﴾.

يا لها من لحظةٍ يرتجف فيها معنى الصَّحبة!

لم يكن ذلك القرن يملك سلاسلَ ظاهرة، بل كلماتٍ وشبهاتٍ وضحكات. كان يقترب من يقينه قطرةً قطرة، حتى كاد أن يرديه. وفي الآخرة يرى المؤمن حجم النعمة التي لم يكن يدركها كاملةً في الدنيا: نعمة أن حفظ الله قلبه.

ليس كل من يضحك معك صديقاً لك، وليس كل من يهون عليك التكليف رحيماً بك. قد يكون أشد الناس خطراً عليك من يجعلك تستحي من إيمانك، أو يزين لك التنازل، أو يسخر من خوفك من الله، حتى تفقد حساسية قلبك ثم تظن أنك تحررت. والنجاة ليست ثمرة ذكاء العبد وحده:

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾.

حتى الثبات نعمة، وحتى اختيار الطريق المستقيم فضل، وحتى النفور من الضلال أثرٌ من آثار رحمة الله. ولذلك لا يدخل الإخلاص قلباً فيورثه غروراً؛ فكلها ازداد المؤمن ثباتاً ازداد شعوراً بالافتقار.

ثم يفيض الفرح:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّيْنِ ﴿قَالَ﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿﴾.

الفوز العظيم ليس أن تذكر في الدنيا طويلاً؛ بل أن تحيا هناك بلا موت. وليس أن تنجو من أزمةٍ عابرة؛ بل أن تأمن من العذاب إلى الأبد.

ثم تأتي الجملة التي تعيد توجيه حركة الحياة كلها:

﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.

ليس النهي عن العمل للدنيا، بل النهي عن أن تتحول الدنيا إلى الأفق الأخير للعمل. ابن، واكتب، وازرع، وعلم، وأصلح؛ لكن اجعل أعمالك تعبر بك إلى ذلك الفوز، لا أن تنتهي بك عند تصفيقي يزول، أو مالٍ يفنى، أو اسمٍ تبتلعه الأيام.

ما أعجب الإنسان: يبذل عمره كله فيما ستركه، ثم يقتصد في العمل لما سيبقى معه!

وسورة الصافات تعيد توزيع الجهد وفق حقيقة المصير:

﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.

شجرةً تنبت في أصل الجحيم
من قوله تعالى: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَاهُ آبَاءِهِمْ ضَالِّينَ﴾
بعد أن عرضت السورة نعيم المخلصين، وسألت الأرواح أن تعمل لمثل ذلك الفوز، تنقلنا
جُفَاءً إلى الضفة الأخرى:

﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿۝﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي
أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿۝﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿۝﴾.

إنه تقابلٌ يهزُّ الحس: فأكهةٌ يتناولها المكرمون في جنات النعيم، وشجرةٌ تخرج من أصل
الجحيم يأكل منها المجرمون. ليست المسألة اختلافًا في الطعام فحسب، بل اختلافٌ طريقتين
أثرا حقيقتيهما في الآخرة.

هناك شجرةٌ نمت من بذور الإيمان والإخلاص، وإن لم يرها المؤمن في الدنيا.
وهنا شجرةٌ نبتت من الكبر والتكذيب، وإن لم يشعر بها صاحبها وهو يسقيها كل يوم
بأعماله.

كلُّ عملٍ بذرة، وكلُّ عادةٍ جذر، وكلُّ إصرارٍ سقيٌّ متواصل. والإنسان قد يزرع مصيره
وهو يظن أنه يمضي في يومٍ عابر. كلمة الظلم لا تحتفي، ونظرة الحرام لا تتلاشى، والمال
المأخوذ بغير حق لا يضيع أثره، والكبر الذي يسكن القلب لا يبقى معنىً مجرداً؛ إنما تنمو
لهذه الأشياء جذورٌ في الغيب، حتى تخرج ثمارها في اليوم الذي تنكشف فيه حقائق
الأعمال.

والزقوم ﴿فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾؛ لأنهم لما سمعوا أن شجرةً تخرج في النار اتخذوا الصورة مادةً
للسخرية، وقاسوا عالم الآخرة على قوانين الأرض، كأن الذي خلق النار لا يقدر أن
يخلق فيها ما يشاء.

وهكذا تكون الآية الواحدة هدايةً لقلب وفتنةً لقلب آخر. لا لأن النور تغير، بل لأن
العيون تحتلف. الشمس نفسها تنضج الثمر وتزيد العفن عفناً؛ والوحي نفسه يلين له قلبٌ
صادق، ويزداد به المستكبر نفوراً.

ثم تتراكم فظاعة المشهد:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا كُؤُونَ مِنْهَا قَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾.

ليس الأكل هنا تلذذاً، بل اضطراراً يعذب الجسد والروح معاً، يملؤون البطن من شيء تنفر منه النفوس، ثم يشربون عليه ماءً بالغ الحرارة، ثم يعودون إلى الحميم. حركة مغلقة لا تقود إلى راحة، ولا تنتهي إلى خلاص.

وهذا جزاءً يناسب حياة كانت هي الأخرى دائرة مغلقة: شهوة تولد شهوة، وذنب يستدعي ذنباً، وفراغ يدفع إلى مزيدٍ من اللهاث. إن من أعرض عن الله قد يأكل كثيراً ولا يشبع، ويجمع كثيراً ولا يستغني، وينتقل من متعة إلى أخرى ولا يصل إلى سكينته؛ لأن حاجة الروح لا يملؤها ما خلق للجسد.

ثم تكشف السورة أصلاً من أصول الغواية:

﴿إِنَّهُمْ أَقْبَوُا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ فَنُفِمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ.

لم تقل: يمشون، بل ﴿يُهْرَعُونَ﴾؛ يسرعون في اتباع الآثار، كأنهم مدفوعون دفعاً، لا يمنحون أنفسهم لحظة للسؤال: إلى أين تنتهي هذه الطريق؟

إن للعادة سلطاناً خفياً، وما يتلقاه الإنسان من بيئته في طفولته قد يستقر في نفسه حتى يظنه من بدهيات الوجود، ثم يغضب ممن يطلب منه مراجعته. وكثير من الناس لا يدافعون عن الحق لأنهم عرفوه، بل يدافعون عن المألوف لأنهم ورثوه.

والقرآن لا يعلم الإنسان احتقار الآباء، بل يحرره من عبادة آثارهم. للآباء فضلهم، وللتاريخ مكانته، لكن الحق لا يصبح باطلاً لأن السابقين رفضوه، ولا يصبح الباطل حقاً لأن الأجيال اعتادته.

إن الوفاء الحقيقي للآباء ليس أن نورث أخطاءهم، بل أن نكمل رحلتهم إلى الله، وأن نستغفر لهم، ونحفظ فضلهم، ولا نجعل محبتهم حجاباً بيننا وبين الوحي.

وفي زماننا تعدد صور الآباء: قد يكونون آباءً بالنسب، أو آباءً بالفكر، أو رموزاً للحزب والجماعة، أو أسماء كبيرة يخشى الناس مراجعتها. وتأتي الصفات لتقول: إن الأثر مهما كان عميقاً لا يعفيك من أن تنظر أين تضع قدمك.

فالطريق لا يصبح مستقيماً بكثرة السائرين عليه، وإنما باستقامته على أمر الله.

النداء الذي اخترق طوفان التكذيب

من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾

بعد مشهد المقلدين، تفتح السورة بسجل التاريخ:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿.

الأكثرية ليست برهانا.

إنها حقيقةٌ يكرها القرآن لأن النفس البشرية تضعف أمام العدد. حين يرى الإنسان الجموع تسير في اتجاهٍ ما، يتسلل إليه وهمٌ بأن كثرتها دليل سلامتها. وقد يستوحش من الحق لا لضعف حجته، بل لقلّة أهله.

لكن السورة تفتح نافذةً على التاريخ: ضل أكثر الأولين، مع أن المنذرين جاءوهم، والحجة بلغت إليهم. لم تنقذهم كثرتهم من عاقبة الضلال، ولم تضرّ عباد الله المخلصين قلتهم. الحق لا يُعدُّ بالأصوات، بل يُعرف بنوره.

ثم يخرج من عمق التاريخ نداء نوح عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

كم وراء هذه الآية من عمر!

إنها تلخص قروناً من الصبر في نداءٍ واحد. نادى نوح ربّه بعدما نادى قومه ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزدحم نداؤه إلا فراراً. وحين أغلقت الأرض أبوابها في وجه الدعوة، بقي باب السماء مفتوحاً.

﴿فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

لم تقل السورة متى جاءت الإجابة، لكنها تقرر أنها جاءت كاملةً في وقتها. وهذا مما يحتاجه القلب حين يطول انتظاره: تأخر الإجابة في حساب الإنسان لا يعني غيابها في تدبير الله. قد ينادي العبد اليوم، ثم تمر الأيام وهو لا يرى إلا صمت الأسباب، غير أن النداء قد دخل منذ اللحظة الأولى في رحمة السميع المجيب. الله لا ينسى الأصوات التي خرجت من قلوب منكسرة. ولا يضيع الدعاء لأن الطريق بينه وبين الإجابة طال.

لقد ظل نوح عليه السلام يدعو زمناً يكفي لانطفاء عزائم أجيال، لكنه لم يجعل ببطء الثمرة دليلاً على فساد البذرة، ولم يقس صدق الرسالة بسرعة استجابة الناس لها. كان مأموراً بالبلاغ، فثبت؛ وكان مؤمناً بالله، فلم يجعل مزاج الجمهور مقياساً لليقين. وهذه واحدة من أعمق حاجات صاحب الرسالة اليوم: ألا يربط قيمة ما يقول بحجم التفاعل معه. قد تكون الكلمة حقاً ولا يصفق لها أحد، وقد تكون باطلاً وتطوف بها الجموع. إن الأنبياء لم يدخلوا التاريخ من بوابة الأرقام، بل من بوابة الصدق.

ثم جاء الفرج:

﴿وَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۖ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۖ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۖ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۖ﴾

من الكرب العظيم إلى السلام في العالمين.

إنها المسافة التي يصنعها الله لعبده الصابر. كان نوح في أعين قومه رجلاً يسخرون منه وهو يصنع الفلك، ثم صار اسمه سلاماً تتناقله الأجيال. وانقلبت السخرية التي أحاطت به إلى طوفان ابتلع أصحابها، وبقيت السفينة شاهداً على أن الناجي ليس من كان على أرض صلبة، بل من كان في رعاية الله.

كم من إنسان يظن أن الأمان في الأشياء الثابتة التي يراها: مالٍ مستقر، وسلطة راسخة، وعلاقات قوية. ثم يأتي قدر الله، فإذا الأرض التي وثق بها تغرق، والسفينة التي سخر منها الناس هي وحدها موضع النجاة.

الأمان ليس في شكل السبب، بل في بركة الأمر.

وقد تبدو طاعة الله سفينة صغيرة وسط طوفان العالم، لكن ما حملة الله لا يغرق.

ثم يأتي التعليل الذي يتكرر في السورة كأنه قانونٌ أبدي:
﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ.﴿

لم تكن نجاة نوح محاباةً بلا معنى، بل جزاء الإيمان والإحسان. والإحسان هنا ليس لحظةً جميلةً معزولة، بل عمرٌ من الثبات؛ أن تحسن إلى رسالتك حين يسيء الناس استقبالها، وتحسن الظن بربك حين يطول الكرب، وتحسن العمل وإن لم تر الثمرة.
﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.

آيةٌ قصيرة، لكنها تطوي حضارةً كاملة. أولئك الذين ملؤوا المشهد صخباً صاروا في جملة واحدة: ﴿الْآخَرِينَ﴾. وبقي نوح باسمه، وبقي السلام عليه.
وهكذا يفعل ميزان الله: يردّ للأسماء حقيقتها بعد أن تخدع الدنيا الأبصار.

إبراهيم صاحب القلب السليم
من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾
ينتقل الموكب من نوح إلى إبراهيم:

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

هذه هي بطاقة التعريف القرآنية بإبراهيم: جاء ربه بقلب سليم.

لم تقدمه السورة أولاً بفعله العظيم، ولا بحجته البالغة، ولا بموقفه من النار، بل بقلبه.
لأن الأعمال الكبيرة لا تولد أولاً في الجوارح، إنما تولد في قلب تحرر من الشوائب، ثم
تفيض منه على الحياة.

القلب السليم هو القلب الذي سلم من الشرك، وسلم لله، وسلم من الاعتراض على أمره،
وسلم من أن يقيم في داخله صنماً خفياً ينازع الله الحب والطاعة. ليس قلباً لا يتألم، ولا
قلباً لا تضطرب فيه المشاعر البشرية، ولكنه قلب لا يسمح للألم أن يغيّر وجهته، ولا
للخوف أن ينتزع منه ولاءه.

وما أحوج الإنسان إلى سلامة القلب في عالم أتنقن تلوّث البواطن!

قد يبدو المرء مستقيم الظاهر، وفي قلبه معبدٌ مزدحم بالأصنام: صنم الصورة أمام الناس،
وصنم الانتصار للنفس، وصنم الجماعة، وصنم الشهرة، وصنم الحقد القديم. والقلب لا
يكون سليماً لمجرد أنه يخلو من الكفر الظاهر؛ بل حين يصفو اتجاهه لله، فلا يستخدم
الحق لخدمة غروره، ولا العبادة لطلب المكائنة، ولا العلم لتكثير أتباعه.

جاء إبراهيم ربه بقلبه، كأن القلب هو الهدية التي يحملها العبد إلى مولاه. فالله غنيٌّ عن
أعمالنا، ولكن الأعمال تكشف ما في القلوب، والقلب السليم هو الذي يجعل القليل
عظيماً بالإخلاص، بينما يحوّل الرياء الكثير إلى رماد.

ومن هذا القلب خرج السؤال المواجه:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أَتُنْفِكَ إِلَهَهُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾.

لم يبدأ إبراهيم بتفاصيل الأصنام، بل هزّ أصل العبادة: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؟
إنه سؤالٌ ينبغي أن يقف أمام كل قلب، لا أمام عبدة الأصنام وحدهم. ماذا تعبد
حين تختار؟ ما الشيء الذي لا تستطيع أن تخالفه ولو خالف أمر الله؟ من الذي تخشى
سنطه أكثر من خشيتك سنط الله؟ ما الذي إذا فقدته شعرت أن حياتك فقدت معناها
كله؟

هناك يظهر المعبود الخفي.
وقد يجيب اللسان: أعبد الله، بينما تكشف ساعة الاختبار أن القلب كان يعبد الأمان،
أو المال، أو رضا الناس. ليست العبادة سجود الجبهة وحده؛ إنها غاية الحب، ومنتهى
الخنوع، والسلطة التي تُمنح حقّ توجيه الحياة.

ثم يسمي إبراهيم فعلهم باسمه:
﴿أَتُنْفِكُوا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾.

إنه إفك؛ قلبٌ للحقيقة. المخلوق الذي يحتاج إلى من يخته ويقيمه ويحرسه، يُجعل إلهًا!
والإنسان الذي منحه الله العقل، يضع جبهته أمام حجر صنعته يداه!
وكل عبادة لغير الله تحمل هذا التناقض. الإنسان يصنع بعض أصنامهم ثم يخاف منها.
يصنع منظومات الشهرة، ثم يعيش أسيرًا لمقاييسها. يمنح الزعيم هالته، ثم يرتعد من نقده.
يضحك المال في قلبه، ثم يفقد عمره في خدمته. إن الصنم لا يبدأ قويًا؛ نحن الذين نودع
فيه أجزاء قوتنا حتى يستعبدنا.

ثم يأتي السؤال الذي يتجاوز الأصنام إلى أصل المعرفة بالله:
﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ما ظنكم به حتى عدلتم عنه إلى غيره؟
أظنتم أنه خلقكم ثم أهملكم؟ أم ظننتم أن خزائنه لا تكفيكم فطلبتم الرزق من أبواب
الذل؟ أم ظننتم أنه لا يسمع دعاءكم، فعلقتم القلوب بالمخلوقين؟ أم ظننتم أن حكمته
ناقصة، فاستثقلتم أمره وتوهّمتم أن أهواءكم أرحم بكم منه؟
إن كثيرًا من الانحرافات تبدأ من ظنٍّ فاسد بالله.

يجل المرء لأنه لا يثق بالرزاق، ويتنازل لأنه لا يوقن بالنصير، ويعترض على القدر لأنه لا يبصر الحكمة، ويتعلق بالبشر لأنه لم يذق كفاية الله. لذلك لم يسأل إبراهيم عن فعلهم فحسب، بل عن الظن الذي أنشأه.

العقيدة في جوهرها حُسن معرفة بالله. وكلما عرفه العبد بأسمائه وصفاته، استحيا أن يسيء الظن بتدييره، أو أن يستبدل ببابه أبواباً لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً. ثم تبدأ الخطوة الهادئة:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۖ فَقَالَ إِنِّي سَمِيعٌ ۖ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾.

خلت الساحة، وانصرف القوم إلى عيدهم، وبقي إبراهيم وحده أمام الأصنام. لكن الحقيقة أنه لم يكن وحده.

من كان الله معه، فليست وحدته فراغاً؛ إنها امتلاءٌ بمعيةٍ لا تراها العيون.

الفأس التي حطمت وهماً قبل أن تحطم حجراً
من قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلَينَ﴾
﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا
بِالْبَينِ﴾.

إن المشهد يحمل سخريه الحق من الباطل، لا سخريه العبث. طعامٌ موضوعٌ أمام آلهة لا
تأكل، وأسئلةٌ تلقى على حجارةٍ لا تنطق، ثم ضربةٌ واحدة تكشف عجز المقدس المصنوع.
﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟

إذا كانت لا تستطيع أن تمد يداً إلى طعام، فكيف تمد يداً إلى مصير؟ وإذا كانت لا
تجيب عمن يسألها، فكيف تجيب من يدعوها؟ وإذا كانت لا تدفع الفأس عن رأسها،
فكيف تدفع الضر عن عابدها؟

لم تكن المشكلة في غياب هذه البراهين عن عقول القوم، بل في أن المجتمع كله كان
قائماً على حماية الوهم. هناك مصالحٌ تتغذى من الأصنام، وسلطاتٌ تستمد قدسيتها منها،
وعاداتٌ تخشى انكشافها. وحين يرتبط الباطل بالمصلحة، لا تكفي وضوح الحجّة وحده
لهداية من قرر ألا يرى.

ثم أقبلوا:

﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَزُوقُونَ﴾ قَالَ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنَحُّتُونَ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

جاءوا مسرعين غاضبين، لا لأن الآلهة تكلمت وطلبت النصرة، بل لأنهم اضطروا إلى
نصرة آلهتهم. وهنا ينقلب معنى الألوهية رأساً على عقب: المفترض أن يحمي الإله عابده،
فيذا بالعابد يحمي إلهه!

وهكذا كل باطل، يحتاج دائماً إلى ضجيج يحرس ضعفه، وإلى قمع يمنع الأسئلة، وإلى
جمهور يغضب إذا اقترب أحدٌ من التمثال. أما الحق فلا يخشى السؤال؛ لأن السؤال
الصادق يزيده ظهوراً.

قال لهم إبراهيم:

﴿اتَّعْبُدُونِ مَا تَخْتُونُ﴾؟

أنتم صنعتموه، ثم صنعكم من الداخل! نحتّم شكله بأيديكم، ثم نحت خوفكم ووعيككم وسلوككم. وما أخطر أن يصنع الإنسان قيده ثم ينسى أنه صانعه. في واقع البشر أصنامٌ لا تُصنع من الحجر، بل من اللغة والتكرار. فكرةٌ يكررها المجتمع حتى تصبح مقدسة، وصورةٌ يلعبها الإعلام حتى تبدو فوق النقد، وعادةً تُوارثها الأجيال حتى يظن الناس أن الاعتراض عليها اعتراضٌ على الوجود نفسه. وتأتي فأس التوحيد لتسأل: من منح هذا الشيء سلطانه؟ الله أذن به، أم أنكم نحتّموه بأيديكم ثم سجدتم له بقلوبكم؟

ولما عجزت الحجة الوثنية عن الرد، انتقلت إلى النار:

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾.

يبنون بنياناً كاملاً لإحراق رجلٍ واحد. وهذه طبيعة الباطل حين يواجه كلمةً صادقة: يحشد مؤسساته الضخمة ليقمع صوتاً أعزل؛ وبذلك يكشف من حيث لا يريد مقدار خوفه من ذلك الصوت.

كان إبراهيم وحده، وهم أمةٌ بأسرها.

وكان بيده اليقين، وبأيديهم النار.

وفي مقاييس الأرض يبدو المصير محسوماً. لكن السورة لا تذكر النار هنا طويلاً، ولا تصف هولها؛ لأن النار، مهما عظمت، تفصيلٌ صغيرٌ أمام إرادة الله:

﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

لم يقل: أبطلنا كيدهم فقط، بل ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾. أرادوا أن يرفعوا سلطان أصنامهم بإحراق إبراهيم، فانتهى كيدهم شاهداً على سقوطهم، وصارت النار التي أعدوها لإطفاء التوحيد منبراً خالداً ليقين الموحدين.

ليس معنى ذلك أن المؤمن لا يتألم، ولا أن كل نارٍ في الدنيا تنطفئ أمامه على الصورة نفسها؛ لكن المعنى الأبقى أن الباطل لا يستطيع أن يجعل صاحب الحق أسفل ما دام قلبه مع الله. قد يسجن جسده، أو يشوه سمعته، أو يحاصره في رزقه، لكنه لا يملك أن ينتزع منه مقامه عند الله.

العلو الحقيقي ليس أن تقف فوق الناس، بل أن يبقى قلبك فوق المساومة.
والسفل الحقيقي ليس أن تُغلب في مشهدٍ عابر، بل أن تنتصر على جسد خصمك وتنهزم
أمام حجته.
لقد خرج إبراهيم من النار أمة، ودخلها خصومه فكرةً منقرضة؛ لأن النار تمس الجسد،
أما اليقين الذي رعاه الله فلا سبيل لها إليه.

الهجرة إلى الله: حين يترك المؤمن مكاناً ولا يفقد وطنه
من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾
بعد النار والكيد، يقول إبراهيم:
﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾.

ما أدفاً هذه الجملة في وحشة الرحيل!
لم يقل: إني ذاهبٌ إلى أرضٍ أخرى، مع أنه كان مهاجراً في الأرض. لقد عرّف الرحلة
بوجهتها الباطنة، لا بحدودها الجغرافية: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾.
قد يترك المؤمن بيتاً أو بلدًا أو جماعةً ألفها، لكنه إذا خرج لله لم يخرج إلى الفراغ. الناس
يرونه يغادر ما يملك، وهو يرى نفسه يقترب ممن يملك كل شيء.

الهجرة الحقيقية ليست انتقال القدمين وحده، بل انتقال القلب من الاعتماد على
المألوف إلى الاعتماد على الله. وقد يبقى المرء في مكانه ويهاجر: يهجر عادةً أفسدت
روحه، أو صحبةً أضعفت دينه، أو صورةً قديمةً لنفسه، أو ذنباً صار له وطناً.
وأصعب الهجرات تلك التي لا يصفق لها أحد؛ حين تترك شيئاً تحبه لأن الله لا يحبّه، ثم
تمضي ولا ترى في أول الطريق عوضاً ظاهراً. هنا يحتاج القلب إلى كلمة إبراهيم:
﴿سَيِّدِينَ﴾.

لم تكن تفاصيل الطريق كلها مكشوفة، لكن الثقة بالدليل كانت كاملة. وهذه هي
الطمأنينة الإيمانية: ألا تعرف كل ما سيحدث، ولكن تعرف من يقودك.
إننا نتعب كثيراً لأننا نطلب من الله خريطة المستقبل كاملةً قبل أن نطيعه. نريد أن
نعرف كيف سنحل المشكلات، ومن سيبقى معنا، ومتى يأتي التعويض. أما إبراهيم
فذهب أولاً، وترك لله أن يهديه في الطريق.

الطاعة لا تعني دائماً أن ترى نهاية الخطوة؛ بل أن تثق بمن أمرك بها.
ثم خرج الدعاء من قلب المهاجر:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

دعاءً قصير، لكنه يحمل شوقاً طويلاً. لم يطلب ولداً فحسب، بل طلبه من الصالحين. لأن النعمة إذا انفصلت عن الصلاح قد تتحول إلى فتنة، والذرية ليست زينةً عددية، بل أمانةٌ ممتدة في الزمن.

وكانت الإجابة:

﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

جاء الغلام بعد انتظار، وجاء معه الوصف: ﴿حَلِيمٍ﴾. وكأن الحلم كان إعداداً للمشهد الذي سيأتي؛ فالموقف المقبل لا يحمله قلبٌ جزوع، بل نفسٌ رباها الله على السكينة والتسليم.

وهنا تبدأ السورة في تقربينا من ذروة الرحلة: لقد نجا إبراهيم من نار أعدائه، لكن الامتحان القادم لن يأتيه من جهة ما يكره، بل من جهة ما يحب. والابتلاء بالمحسوب أدق من الابتلاء بالمكروه.

فأمام النار يعرف الإنسان عدوه، أما في حضرة النعمة فقد لا يشعر أن قلبه بدأ يتعلق بها حتى تراحم المنعم. ولهذا يطهر الله قلوب أصفياه، لا ليحرهم الحب، بل ليجعل حبهم طاهراً: يحبون النعمة بالله، ولا يحبونها بدلاً من الله.

حين بلغ السعي موضع الذبح
من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾
﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾.

لم يأتِ الابتلاء يوم كان الغلام رضيعاً لا تزال صورته في قلب أبيه غائمة، بل جاء بعدما بلغ معه السعي؛ بعدما صار يمشي إلى جواره، ويعينه في أمره، ويملاأ البيت بصوته، ويوقظ في قلب الشيخ معنى الأبوة الذي انتظره طويلاً.
بلغ السن التي لا يعود فيها الابن وعداً مؤجلاً، بل يصير رفيقاً حاضراً.
وهنا تحديداً جاء الأمر.

إن القرآن لا يذكر التفاصيل الصغيرة، لكنه يفتح بهذه العبارة أبواباً واسعة للشعور: كم مرة نظر إبراهيم إلى ابنه وهو يكبر؟ كم حلم انعقد عليه؟ كم دعاء قديم رآه متجسداً يمشي أمامه؟ إنه الغلام الذي جاء بعد الهجرة والوحدة والانتظار، وبعد أن صار الشيب شاهداً على أن مجيئه لم يكن بقوة الأسباب، بل بهبة الله.

وحين استقرت النعمة في اليد، جاء الامتحان ليكشف: أهى في اليد، أم تجاوزت إلى الموضع الذي لا ينبغي أن يسكنه إلا الله؟
﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾.

يا للركة التي تسري في ثنايا هذا الأمر المزلزل!

﴿يَا بُنَيَّ﴾؛ نداء الأبوة الحانية في اللحظة التي يُكَلَّف فيها الأب بأشد ما يوجع الأبوة. لم يطفئ الأمر الإلهي عاطفة إبراهيم، ولم يحوله إلى حجر لا يشعر. إنه يحب ابنه، ولهذا كان البلاء بلاءً. ولو خلا القلب من الحب لما كان في الذبح امتحان.

الإيمان لا يقتل المشاعر؛ إنما يمنعها أن تصبح آلهة.

والتسليم لا يعني ألا يتألم القلب، بل أن يبقى متجهاً إلى الله وهو يتألم. قد ترتجف اليد، وتفيض العين، ويضيق الصدر، ثم يظل القرار لله. فليس المؤمن هو الذي فقد إنسانيته، بل الذي هذب إنسانيته حتى صار الحب في قلبه طريقاً إلى الله، لا حجاباً عنه.

والرؤيا في حق الأنبياء وحي، ولذلك لم يكن إبراهيم يعرض على ابنه فكرة شخصية، بل يبلغه أمر الله. ومع ذلك قال: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾؛ ليشارك الابن في مقام التسليم عن وعي ورضاء، لا أن يُساق إلى الطاعة وهو غائب عنها.

إن التربية الإيمانية لا تصنع أجساداً مطيعةً بلا بصيرة، بل قلوباً تعرف لماذا تسلم. لقد ربّى إبراهيم ابنه على معرفة الله، حتى جاء يوم الامتحان فتكلم الغلام من الموضع نفسه الذي يتكلم منه أبوه:

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

يقابل ﴿يَا بُنَيَّ﴾ قوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾؛ نداء ان رقيقان يحيطان بمشهد الذبح. ليس في الحوار جفاء، ولا صراخ، ولا اضطراب لفظي، كأن السكينة قد نزلت على قلبين اتفقا أن يكون أمر الله أعرّ عليهما من نفسيهما.

﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

لم يقل: افعل ما تريد، ولا: افعل ما رأيت، بل ردّ الأمر إلى مصدره: ما تؤمر. فهو لا يسلم رقبتَه لمجرد إرادة أبيه، وإنما يسلمها لله الذي آمن به أبوه وآمن به هو.

إنها عبودية واعية، لا استسلام بشريٍّ أعمى.

ثم يقول: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

لم يعترّ بعزمه، ولم يقل: ستجدي صابراً، كأن الصبر قوة ذاتية يملكها متى شاء. علّق قدرته على مشيئة الله، فعرف أن الثبات في لحظة البلاء هبةٌ لا تنقل عن هبة النجاة منه.

كم يعاهد الإنسان نفسه في ساعة الرخاء، فإذا هبّت العاصفة اكتشف أنه أضعف مما

ظن! أما الغلام الحليم فقد استمد صبره من الله قبل أن يدخل الامتحان.

وفي هذه الكلمات منهجٌ للقلب أمام الشدائد: لا تدخل البلاء مزهواً بقوتك، بل مفتقراً إلى ربك. قل: إن شاء الله. لا كلمة على هامش العزم، بل اعترافاً بأنك لا تثبت إلا إذا ثبتت.

ثم تبلغ السورة ذروة المشهد:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْحَيِّينَ﴾.

كلمة واحدة تجمع الأب والابن: ﴿أَسْلَمَا﴾.

أسلم الأب محبوبه.

وأسلم الابن نفسه.

وأسلها معاً الأمر لله.

لقد انتهى الجدل في داخلهما قبل أن تبدأ حركة الذبح. وهذه هي حقيقة الإسلام في أنقى صورها: أن يضع القلب سلاح اعتراضه، وأن يكفَّ عن منازعة الله في حكمه، لا اضطراراً إلى قوةٍ غالبية فحسب، بل ثقةً وحباً وتعظيماً.

﴿وَتِلْكَ لَآيَاتُ الْكِتَابِ﴾.

أضجعه على وجهه، ومضى الأمر من عالم الفكرة إلى واقع الفعل. لم يكن تسليماً لغوياً، ولا دمة عاطفية تنتهي دون تكليف. لقد تحركت اليد، ووضعت الجبين، وصار الامتثال على حافة التنفيذ.

هنا يظهر الفرق بين تمني الطاعة وحقيقتها. ما أكثر ما نحب الله في الكلمات، فإذا وقف بيننا وبين محبوب من محبوباتنا بدأنا نبحث عن تأويلٍ يعفينا! وما أكثر ما نزعم التسليم ما دام الأمر موافقاً لرغبتنا، فإذا خالفها قلنا: لعل المراد غير هذا.

أما إبراهيم، فلم يكن يبحث عن مخرجٍ من الأمر، بل كان يدخل فيه بكليته.

وفي تلك اللحظة التي لم يبقَ فيها في قلب الخليل شيءٌ لم يُسلم، جاء النداء:

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١١٢﴾ قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا﴾.

لم يكن المقصود إراقة الدم، وإنما إظهار صدق التسليم. فلما تحقق المقصود، انتهى الذبح. إن الله لا يتلذذ بعذاب عباده، ولا يحتاج إلى دماءهم، سبحانه الرحيم الحكيم؛ ولكنه يربي قلوبهم، ويحررها من العبوديات الخفية. وقد كان المطلوب أن يُذبح التعلق الذي يمكن أن ينازع محبة الله، لا أن يموت الغلام.

نجا الابن بعدما تحرر الأب من أن يملكه بقلبه ملكاً يزاحم حق الله.

ولهذا يكون بعض المنع عطاءً خفياً، وبعض التكليف تحريراً، وبعض الألم جراحةً رحيمةً تستأصل من القلب عبوديةً لم يكن يراها.

إن لكل إنسان «إسماعيله» المعنوي: شيءٌ عزيزٌ يخشى فقده، وتعلق به أحلامه، ويشعر أن الحياة لا تكتمل دونته. قد يكون مالاً، أو جاهاً، أو شخصاً، أو مشروعاً، أو صورةً رسمها لمستقبله. وليس المطلوب أن يهدم المرء نعم الله أو يهجر مسؤولياته، وإنما أن يسأل قلبه: لو تعارض هذا المحبوب مع أمر الله، فأيهما أقدم؟ هناك يظهر مقام التوحيد.

ليس الخليل من لا يحب، بل من لا يجعل محبوباً فوق الله.
﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ.

إنه بلاءٌ ظاهرٌ كاشف؛ يكشف معدن الأب، ومعدن الابن، ومقدار حضور الله في القلبين. فالابتلاء لا يأتي دائماً ليعاقب؛ قد يأتي ليُظهر جمالاً أودعه الله في عبده، وليخرجه من طور الاستعداد الخفي إلى مقام الشهادة الظاهرة.
قبل البلاء كان إبراهيم مؤمناً بتسليمه.
وبعده صار تسليمه آيةً نتعلم منها الأمم.

الفداء: حين يعيد الله النعمة بعد أن يطهر موضعها في القلب
من قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَنْبٍ عَظِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾
﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَنْبٍ عَظِيمٍ﴾.

جاء الفداء من السماء بعدما اكتمل التسليم على الأرض.
لم ينتزع الله الابن من أبيه، بل أعاده إليه مطهر الصلة: ابناً محبوباً، لا ندّاً خفياً في
القلب. فالنعمة قبل الابتلاء كانت عطية، وبعد الابتلاء صارت عطية وشهادة.
وهكذا يفعل الله أحياناً: يطلب منك أن تفتح يدك عما تحب، فإذا صدقت في فتحها
أعاده إليك، ولكن بقلب أكثر حرية. وقد لا يعيد الشيء بعينه، إلا أنه يمنحك ما هو
أصفي منه: سكيناً لا يمنحها التملك، وقرباً لا تصنعه الأسباب، ومعرفةً به لم تكن لتولد
في الرخاء.

الفداء هنا إعلانٌ أبدي أن شريعة الله لا تقوم على تقديم الأبناء قرابين، كما كانت تفعل
ضلالات البشر، بل على أفراد الله بالطاعة. لقد أبطل الله دم الإنسان، وأبقى معنى
التسليم، وجعل الذبح نسكاً يحيي ذكرى التوحيد والرحمة معاً.
كلما أراق المؤمن دم الأضحية، تذكر أن أصل الحكاية لم يكن دمًا، بل قلباً صادق.
وليس من روح الأضحية أن تُذبح الأنعام وتظل أصنام النفس آمنة. ما قيمة أن تمر
السكين على رقبة الكبش، ولا تمر تربية إبراهيم على شح القلب وكبره وريائه وتعلقه بغير
الله؟

إن الذكري القرآنية لا تريد منا أن نقف متفرجين على بطولة الخليل؛ بل أن نبث عن
نصيبنا من التسليم.
ثم يخلد الله ذكره:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١١﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

أراد قومه أن يحو اسمه بالنار، فأبقاه الله في ضمير النبوات كلها. صار المسلمون يذكرونه في صلواتهم، وتحمل شعائر الحج آثار خطاه، ويرتبط النسك بموقفه، وتلهج الأمم بالسلام عليه.

من حفظ عهد الله حفظ الله أثره.

ولا يحتاج الخلود الحق إلى أن يطارد الإنسان شهرته؛ فالذكر الذي يصنعه الناس قد يعلو سريعاً ثم يتلاشى، أما الذكر الذي يضعه الله لعبده في القلوب فيولد من الصدق، وقد يبدأ بعد أن يظن أهل الأرض أن صاحبه قد انطفأ.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ.

يعود قانون السورة: الإحسان، ثم الجزاء، الإيمان، ثم الحفظ.

والإحسان عند إبراهيم لم يكن ليناً مجرداً، بل جمال العبودية في أقصى الامتحان. أحسن حين حطم الصنم، وأحسن حين واجه النار، وأحسن حين هاجر، وأحسن حين دعا، وأحسن حين أخذ ابنه إلى موضع البلاء.

الإحسان ليس دائماً فعلاً رقيق المظهر؛ قد يكون موقفاً حاسماً، أو فراقاً موجعاً، أو تضحية لا يفهمها من لم ير ما في القلب من يقين. لكنه في كل صوره أن تؤدي حق الله بقلب حاضر، وكأنك تراه.

ثم تسع البشارة:

﴿وَشَرَّانَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ.

لم تنته العطايا عند الفداء. جاء إسحاق بشارة أخرى، وجاءت النبوة والصلاح والبركة. كأن السماء تقول لإبراهيم: حين لم تبخل علينا بمحبوبك، لم نضيق عليك أبواب فضلنا.

ولا يعني ذلك أن كل تضحية تعوض في الدنيا بصورة مادية مباشرة؛ فالله أوسع حكمة من معادلاتنا العاجلة. لكن اليقين أن ما يترك الله لا يضيع. قد يعود بركة في القلب، أو نوراً في الذرية، أو ذكراً حسناً، أو ثواباً مدخراً حيث لا موت ولا فراق.

ثم تقرر الآية حقيقة دقيقة:

﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

البركة في النسب لا تلغي مسؤولية الفرد. ليس كل من انحدر من بيت النبوة محسنًا، ولا يكفي أن يكون المرء ابن صالح ليصير صالحًا. إن الكرامة الموروثة لا تغني عن الإيمان المكتسب.

وهذا تحريرٌ من وهم السلالة، ووهم الاسم، ووهم الانتساب. قد يولد الإنسان في بيت علم، أو ينتمي إلى جماعة خير، أو يحمل اسمًا كريمًا، ثم يظلم نفسه. فالله لا يحاسب الأنساب، بل القلوب والأعمال.

إن القرب الجسدي من الصالحين لا يعوّض البعد القلبي عن الله.

موسى وهارون: حين يثقل الكرب وتأتي النجاة
من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾
﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ
فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

مرة أخرى يظهر الكرب العظيم، كما ظهر في قصة نوح. تختلف صور الكروب، لكن
رب النجاة واحد.

كان كرب نوح طوفان الكذب، وكرب موسى وهارون طغيان فرعون واستعباد بني
إسرائيل. كرب امتد في الأجساد والأرواح: أبناء يذبحون، ونساء يُستحيين، وأمة تُربى
طويلاً على الخوف حتى يصبح القيد جزءاً من صورتها لنفسها.

وما أشد الاستبداد حين لا يكتفي بأن يقيد اليد، بل يقنع المظلوم بأنه خلق للقيد!
إن الطغيان لا يعيش بقوة الطاغية وحدها؛ بل بما يزرعه في قلوب الناس من شعور
العجز. يجعلهم يرونه أكبر من أن يهزم، ويرون أنفسهم أصغر من أن يتحرروا، حتى يتحول
الخوف من حالة طارئة إلى هوية.

ثم يئنُّ الله على موسى وهارون، وعلى قومهما بالنجاة. والمنة ليست لأنهم امتلكوا جيشاً
يعادل جيش فرعون، بل لأن الله دخل بالقدره القاهرة في المعادلة التي ظن فرعون أنه
أغلقها.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

كانت أبصار الدنيا ترى فرعون غالباً: له الملك، والجنود، والأنهار، وأدوات البطش.
لكن القرآن ينقل النظر من ظاهر اللحظة إلى عاقبتها. الغلبة ليست أن تملك أول المشهد،
بل أن يبقى حَقُّك بعد انقضاء المشهد.

كم من طاغية بدا في يومه كأنه قدرٌ لا يُرد، ثم صار بعد موته عبرة تُتلى! وكم من
مستضعفٍ لم يكن يملك إلا إيمانه، ثم صار صوته أقوى من القصور التي أرادت إسكاته!

إن القوة التي لا تتصل بالحق تحمل أسباب سقوطها في داخلها؛ لأنها تحتاج في كل يوم إلى مزيد من الكذب والعنف حتى تحمي صورتها. أما الحق فقد يُحاصر، لكنه لا يحتاج إلى الكذب ليبقى حقاً.

ثم تذكر السورة نعمة الكتاب:

﴿وَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۖ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

لم تكن النجاة من فرعون نهاية الرسالة. فما قيمة أن يتحرر الجسد من الطاغية، ثم تبقى الروح أسيرة الهوى؟ وما قيمة الخروج من أرض العبودية إذا لم يعرف الإنسان الطريق الذي يسير فيه بعد خروجه؟
لذلك جاء الكتاب بعد النجاة.

الحرية تحتاج إلى هداية، وإلا تحولت من خروج على طاغيةٍ واحد إلى خضوعٍ لطغاةٍ متفرقين في النفس والمجتمع. قد تسقط القيود الظاهرة، ثم يعبد الإنسان شهوته، أو قبيلته، أو مصلحته، أو يحن إلى السجان لأنه لم يتعلم كيف يعيش مسؤولاً.

﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾؛ الكتاب الواضح الذي يكشف الطريق، ويفصل بين الهدى والضلال، ويمنح الأمة معياراً أعلى من تقلبات القوة.

الوحي لا يأتي ليعزّي المقهورين فقط، بل ليبنّيهم بعد التحرر. ينقلهم من رد الفعل إلى الرسالة، ومن مجرد النجاة بأنفسهم إلى إقامة العدل في الحياة.
﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

الهداية إلى الطريق نعمةٌ لا تقل عن النجاة من العدو؛ فليس كل ناجٍ يعرف أين يذهب، وليس كل متحرٍ يعرف كيف يستخدم حريته.

وكم من إنسانٍ دعا طويلاً أن ينقذه الله من ضيق، فلما نجا لم يسأل عن الطريق! طلب زوال المرض ولم يسأل كيف يستثمر العافية، وطلب سعة الرزق ولم يسأل كيف يشكرها، وطلب الخروج من المحنة ولم يسأل أي إنسانٍ ينبغي أن يصبح بعدها.
النجاة التي لا تعيدك إلى الصراط قد تحول إلى ابتلاءٍ جديد.

ثم يبقى الذكر:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ۖ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

سلامٌ على الأخوين اللذين حملا الرسالة معاً.

في قصة إبراهيم يبرز امتحان الأبوة والبنوة، وهنا تبرز نعمة الأخوة في طريق الدعوة. لم يرَ موسى في هارون منافساً على النبوة، بل سأل ربه أن يشدّ به أزره، وأشركه في أمره. ولم يتحول القرب بينهما إلى تنازع على المكانة، بل إلى تعاونٍ على حمل الأمانة.

وما أحوج العاملين لله إلى هذه الروح: أن يرى أحدهم قوة أخيه قوةً للرسالة، لا خصماً من رصيده؛ وأن يفرح بأن يُسدَّ نقصه بفضل غيره؛ وأن تكون الغاية أكبر من الأسماء. حين تكون الدعوة لله تتسع القلوب للشركاء.

وحين تصبح للنفس تضيق حتى بالأخ.

سلامٌ على موسى وهارون: جزاء الإحسان وصدق العبودية
من قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾
﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ ﴿﴾.

يتكرر الإيقاع نفسه الذي أعقب قصة نوح وإبراهيم: سلامٌ، ثم جزاء الإحسان، ثم شهادة
الإيمان.

وكان السورة تبني تعريفاً جديداً للنجاح: ليس أن تعيش بلا كرب، فقد دخل الأنبياء
الكرب العظيم؛ وليس أن تسلم من الأذى، فقد واجهوا النار والبحر والطغيان؛ وإنما أن
تخرج من الامتحان وقد كتب الله عليك السلام.

سلامٌ على الاسم بعد ضحيج الخوصوم.

سلامٌ على القلب بعد الخوف.

سلامٌ على الرسالة بعد محاولات الإطفاء.

وأعلى ما يرجوه المؤمن ألا يقال عنه في الأرض إنه كان قوياً أو مشهوراً، بل أن يشهد
الله له: ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن الإضافة إلى الله: ﴿عِبَادِنَا﴾، مقام قربٍ وتشريف. أولئك الذين لم يريدوا أن يكونوا
أرباباً في الأرض، رفعهم الله بصدق عبوديتهم. فالإنسان كلما ازداد الله عبوديةً، تحرر
من الذل لغيره؛ وكلما طلب السيادة لنفسه، سقط عبداً لشهوته وصورته.

ليس المجد في أن تتجاوز مقام العبودية، بل في أن تبلغه كاملاً.

إلياس: النداء في وجه عبادة «بعل»

من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

يظهر إلياس عليه السلام في موكب المرسلين:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿﴾.

يبدأ بالسؤال الذي يوقظ الفطرة:

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟

ألا تضعون بينكم وبين عاقبة الشرك وقاية؟ ألا ترتجفون وأنتم تتركون الخالق إلى مخلوق؟
ألا تشعرون أن في الروح خللاً حين تتجه بالدعاء إلى صنم لا يسمع؟

ثم يسمي معبودهم:

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾؟

وتقف الكلمة قصيرةً ثقيلة، كأنها تختزل عالم الوثنية كله: اسمُ صنعه البشر، ثم حملوه

مخاوفهم وآمالهم، وتركوا من خلقهم وخلق آباءهم.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

ليس العجب أنهم عرفوا صنماً، بل أنهم تركوا الله. فكل تعلق باطل يحمل في أعماقه
تركاً لشيء من حق الله. لا يملأ الصنم فراغاً محايداً، بل يحتل موضعاً كان ينبغي أن
يكون للخالق وحده.

ويذكّرهم إلياس بأن الله ليس رب جيلهم فحسب:

﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

قبل أن توجد عاداتكم كان الله، وقبل أن تُنحت أصنامكم كان الله، وقبل أن تتشكل
ثقافتكم كان الله. فلا يجوز أن يُحاكم الحق الأزلي إلى مألوف طارئ صنعته القرون.

إن الناس كثيراً ما يمنحون القدم قداسةً؛ فإذا امتد الباطل في التاريخ ظنوه حقاً. لكن طول عمر الخطأ لا يغير طبيعته. قد توارث الأجيال الوهم حتى يكتسب لحيّة بيضاء، ويظل وهماً.

والله رب الآباء الأولين، فلم يكن السابقون خارج سلطانه، ولا يصبح انحرافهم حجةً عليه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

كذبوه، لكن التكذيب لم يبلغ الرسالة. إنما نقلهم من مقام السامعين للحجة إلى مقام المحضرين للعقوبة. وكل إنسان سيُحضَر؛ غير أن قوماً يُحضرون إلى الكرامة، وقوماً يُحضرون إلى الحساب.

والفارق هو الإخلاص.

المُخْلِصُونَ أَفْلَتُوا مِنْ سُلْطَانِ الْأَصْنَامِ؛ لأن الله خَلَّصَ قُلُوبَهُمْ لِنَفْسِهِ. وما دام في القلب إخلاصٌ صادق، فإن للأوهام حدوداً لا تستطيع تجاوزها. قد تحاصر المؤمن من الخارج، لكنها لا تجدد في داخله موضعاً تستقر فيه.

ثم يترك الله على إلياس سلاماً في الآخرين، ويقرر مرةً أخرى أن الإحسان لا يضيع، وأن الإيمان الصادق أبقي من الحضارات التي قاومته.

سلامٌ على إلياس: حين يبقى صوتُ الموحد بعد سقوط المعبد
من قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾
﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سلامٌ على إل ياسين ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾
﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

مرَّ معبد «بعل»، وسقط عابدوه، وبقي السلام على إلياس.
وهذه مفارقة التاريخ الكبرى: الباطل يملك المبنى، والحق يملك المعنى. قد ترتفع للوثنية
أعمدة شاهقة، وتُحشد لها الأموال والجموع، ويبدو صوت النبي بينها ضعيفاً وحيداً، ثم تمر
السنون، فإذا المعبد أثر صامت، وإذا كلمة الموحد حياةٌ تتردد في القلوب.
ليس البقاء لمن يملك أعلى بناء، بل لمن يحمل أصدق حقيقة.
ولذلك ينبغي ألا يخدع المؤمن ضخامة الباطل في لحظته. فالباطل يستطيع أن يصنع
حضوراً، لكنه لا يستطيع أن يصنع خلوداً. قد يملأ العين فلا ترى غيره، لكنه خفيفٌ
في ميزان الحقيقة؛ لأن كل ما انفصل عن الله يحمل موته في داخله.
أما إلياس، فلم يكن له من أدوات القوة الظاهرة ما كان لصنّاع المعبد، ولكن كانت له
كلمة: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾. والكلمة المتصلة بالله أطول عمراً من الحجارة.

ثم تأتي الشهادة:

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنها الشهادة التي تتضاءل أمامها كل ألقاب الدنيا. فقد يعرفك الناس بكاتبٍ أو قائدٍ أو
عالمٍ أو صاحب أثر، ولكن حقيقتك الأخيرة هي الاسم الذي تُعرف به في الملاء الأعلى:
أمن عباد الله المؤمنين أنت، أم من عباد صورتك ومصلحتك وهواك؟
إن الألقاب التي يمنحها البشر تتبدل، أما «عبد مؤمن» فاسمٌ يصلح للأبد.

لوطُ والقرية التي انقلب فيها ميزان الفطرة
من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾
﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ ثُمَّ
دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ.

لا تطيل السورة هنا تفاصيل القصة؛ فهي تلتقط منها لحظة الفصل: نجاة من جهة،
وتدمير من جهة أخرى.

كان لوطُ عليه السلام يعيش في مجتمع لم يكتفِ بارتكاب الفاحشة، بل تحولت فيه
الفاحشة إلى عرفٍ يدافع عن نفسه، ويطارد الطهارة، ويستثقل وجود من يذكّر
بالفطرة. وهذه أخطر مراحل الانحراف: حين لا يعود الذنب ضعفاً يستحي صاحبه منه،
بل يتحول إلى هوية تستكبر عن النصح.

قد يزل الإنسان ثم يبقى في قلبه نورٌ يؤنّبه؛ فهذا النور باب رجوع. أما إذا أعاد تسمية
الزلة فضيلة، وسمّى الناصح متخلفاً، وجعل الطهارة جريمة اجتماعية، فقد أقام حول قلبه
جداراً تمنع وصول التوبة.

والقرآن لا يعالج الانحراف بمنطق التشفي في أصحابه، بل بمنطق حماية الإنسان وفطرته
وكرامته. إنه يريد للغريزة أن تبقى في الموضع الذي جعله الله لها، كي تكون طريقاً إلى
السكن والمودة والعمران، لا قوة تهدم معنى الأسرة وتفصل اللذة عن الأمانة.

ثم تذكر الآية أن امرأة لوط كانت من الغابرين. لقد كانت في بيت نبي، ورأت الوحي
قريباً، ولكن القرب المكاني لا ينجي قلباً اختار الالتئام إلى الباطل.
مرة أخرى تسقط حجة النسب والصحبة.

قد يسكن المرء بجوار النور ولا يفتح نافذته، وقد يعيش عمره بين الكلمات الصالحة ولا
يسمح لها أن تعبر إلى قلبه. فالهداية ليست ميراً آلياً، ولا تنتقل بالقرابة، وإنما تتلقاها
النفوس بالصدق والاستجابة.

ثم تخاطب السورة أهل مكة:

﴿وَإِنْكُمْ تَمُوتُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ ﴿٦٠﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

تموتون على آثارهم صباحاً وليلاً؛ فالموعظة قائمة على الطريق، لكنكم تعبرونها بلا اعتبار. إن الإنسان قد يعتاد المشهد حتى يفقد دلالاته. يمر على المقابر فلا يتذكر الموت، ويرى مصارع الطغاة فلا يتعلم، ويقرأ أخبار الأمم كأنها حكايات عن جنس آخر لا تسري عليه قوانينهم.

ولهذا لم يقل: أفلا تبصرون؟ فهم يبصرون الآثار، وإنما قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

العين ترى الحجر، والعقل يرى العاقبة.

العين ترى مدينةً أنقضى أهلها، والعقل يدرك أن سنن الله لا تحابي أمةً بعد أمة.

ليس الاعتبار أن تعرف ما حدث، بل أن تسأل: ما الذي في الأسباب التي

أهلكتهم؟ هل مررت على القصة، أم مررت القصة على قلبك فغيرته؟

إن القرآن لا يريد من قارئه أن يقف خارج القصص قاضياً على الغابرين، بل أن يدخلها

متبهماً نفسه، باحثاً عن موضع النجاة.

يونس: حين تضيق الأرض ولا يضيق باب التسليم
 من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَنَّاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾
 ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ .
 تسمي السورة الحركة باسم يهزُّ القلب: ﴿أَبَقَ﴾؛ مضى مغاضباً قبل أن يؤذن له، كما
 يهرب الآبق من موضعه، وهي كلمة تُظهر دقة الميزان مع الأنبياء، مع حفظ مقام النبوة
 وفضل الرسول الكريم.

لقد ضاق يونس بقومه بعد طول تكذيب، فغادرهم، ولكنه تعلم أن صاحب الرسالة لا
 يختار لحظة الانصراف من تلقاء نفسه. فالدعوة ليست ملكاً للداعية، والناس ليسوا
 مشروعاً شخصياً يتركه متى لم يعطِ النتائج التي أرادها. إنه عبدٌ يبلغ ويصبر وينتظر أمر الله.
 دخل الفلك المشحون، ثم اضطرب البحر، وصارت السفينة بحاجةٍ إلى أن يُطرح منها
 أحد:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فَالتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ .
 قرعةٌ، فبحرٌ، فحوتٌ، فظلماتٌ متراكبة: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت.
 كل أسباب النجاة المألوفة قد انقطعت. لا أرض تحت القدم، ولا بشر يسمعون النداء،
 ولا باب يُطرق، ولا قوةٌ يملكها الجسد أمام جوفٍ مغلق في عمق الماء.
 لكن بقي شيءٌ واحد لا تستطيع الظلمات إغلاقه: الطريق إلى الله.
 ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسِجِّينَ﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ .
 لم تقل الآية: فلولا أنه سبَّح في تلك اللحظة فحسب، بل: ﴿كَانَ مِنَ الْمُسِجِّينَ﴾. كان له
 رصيدٌ سابق من معرفة الله وذكره وعبادته، فلما نزل البلاء وجد قلبه الطريق الذي اعتاد
 أن يسلكه.
 في الرخاء نتعلم لغة النجاة.

من لم يعرف باب الله إلا عند الشدة قد يدلّه اضطراره إليه، والله رحيمٌ بمن دعاه؛ لكن من عمّر قلبه بالذكر قبل المحنة يجد التسبيح حاضراً حين تغيب عنه كل الكلمات. والتسبيح ليس مجرد ترديدٍ باللسان؛ إنه تنزيه الله عن كل ظنٍّ سيئٍ: تنزيهه عن الظلم، وعن العبث، وعن أن يترك عبده بلا حكمة. وحين يقول المكروب: سبحان الله، فهو يعلن أن الخلل ليس في تدبير ربه، وأن الله أرحم وأحكم وأعظم مما تصوّره نفسه في ساعة الضيق.

في التسبيح يخرج القلب من ضيق الاعتراض، ولو ظل الجسد داخل البلاء. وهنا يكمن سر النجاة: قبل أن يُخرج الله يونس من بطن الحوت، أخرجه التسبيح من ظلمة النظر إلى القدر. عاد إلى مقام العبودية، فتهبّت له العودة إلى الأرض.

﴿فَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَانْتَبْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾.

ألقاه الحوت بأمر الله على أرضٍ عارية، وهو ضعيف البدن. ثم نبتت فوقه شجرة اليقطين؛ ظلٌّ وطعامٌ وسترٌ ورعاية.

يا لرحمة الله بعد التأديب!

لم يقل له: لما أخطأت دعك مع أهلك. بل صحح خطوته، ثم أحاط ضعفه بشجرة. فالتربية الإلهية لا تقصد سحق العبد، وإنما إعادته. قد تؤلمه لتوقظه، ثم ترعاه وهو يتعافى من أثر الدرس.

الشجرة الصغيرة هنا تحمل معنىً واسعاً: أن الله الذي أنجاه من جوف الحوت لم يهمل حرارة الشمس فوق جلده. رحمته لا تعالج الكوارث الكبرى فقط، بل تنتبه إلى ضعف الجسد، وحاجته إلى ظل، وإلى ورقةٍ تغطيه.

ما أوسع الفرق بين نظرنا إلى أنفسنا بعد الخطأ ورحمة الله بنا! قد يحبس الإنسان نفسه في الذنب، ويظن أنه لم يعد أهلاً للبدء، بينما يفتح الله له شجرةً جديدةً ويهيئه رسالةً جديدةً.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٠٢﴾ فَاَمَّنُوا فَمَرَعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

عاد يونس إلى الرسالة، وعاد قومه إلى الإيمان.

إن الخطأ لم يكن خاتمة حياته، بل صار فصلاً في تربيته. وهذه بشرى لكل من عثر:
لستَ مجموع عثراتك، ويمكن للتوبة أن تعيدك إلى موضع النفع، بل قد تجعلك أكثر رحمةً
بالناس وفهماً لضعفهم.

والأمة التي غادرها يونس يائساً منها آمنت بعد ذلك. كأن السورة تقول للداعية: لا تجعل
تقديرك للحظة حكماً نهائياً على القلوب. قد يبدو الناس بعيدين، ثم يفتح الله فيهم باباً لا
تراه. أنت لا تملك مفاتيح الهداية، ولهذا لا يحق لك أن تعلن إغلاق أبوابها.
ما دام الإنسان حياً، فثمة إمكان لأن يصل النور.
وما دام الله هو الهادي، فلا يجوز لليأس أن ينتحل صفة العلم بالغيب.

حين ينسب الوهم إلى الله ما يأنف أصحابه منه
 من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾
 بعد موكب الأنبياء تعود السورة إلى مناقشة أوهام المشركين:
 ﴿فَاسْتَفْتِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ. .
 كانوا ينسبون الملائكة إلى الأنوثة، ثم يزعمون أنهن بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً
 كبيراً. ولم يكن القرآن هنا ينتقص الأنثى، وإنما يفضح تناقضهم: كيف ينسبون إلى الله
 ما كانوا هم يأنفون منه وفق ميزانهم الجاهلي الفاسد؟
 إنهم لا ينطلقون من معرفة، بل من هوى ينسج تصوراً دينياً على مقاسه.
 ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. .
 إن التوحيد ينزه الله عن مشابهة خلقه. فهو سبحانه الأحد الصمد، لا يحتاج إلى ولد،
 ولا تحيط به خصائص الأجسام، ولا تجري عليه سنن المخلوقين. وكل تصور يهبط
 بالخالق إلى مقاييس الخلق هو فساد في أصل المعرفة.
 الله ليس كمثل شيء، فلا تُتخذ علاقات البشر وصور التناسل والنسب جسوراً لوصف
 ذاته. إن الوحي يعرفنا به كما عرّف نفسه، وتنتهي المعرفة عند حدود التنزيه والتسليم، فلا
 يقتحم الخيال مقاماً لا يبلغه.

ثم يحاصرهم السؤال:
 ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ فَأَتُوا بِكُلِّكُمْ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. .

ما سند هذا الاعتقاد؟ أهو وحي نزل؟ أم مشاهدة حضروها؟ أم برهان عقلي؟ أين
 كتابكم؟

هكذا يحجر القرآن العقيدة من الظنون الموروثة. فلا يكفي أن تنتشر الفكرة حتى تصح،
 ولا أن تزين بلباس ديني حتى تصبح وحيًا. كل ادعاء عن الله يحتاج إلى سلطان،
 وأوقت السلطان ما جاء من عند الله نفسه.

وهذه قاعدةٌ تحفظ الدين من الإضافات التي يصنعها الخيال ثم يقدسها الزمن: لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه، ولا ننسب إلى الغيب ما لم يثبت، ولا نجعل العاطفة مصدراً مستقلاً للعقيدة.

ثم يقول تعالى:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۖ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۖ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

تبلغ الخرافة حدَّ اختراع نسبٍ بين الخالق وبعض خلقه، فتأتي كلمة التنزيه قاطعةً: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

سبحان الله: كلمةٌ تهدم كل صورةٍ ناقصة نسجها الوهم عن رب العالمين.

سبحان الله عن حاجته إلى معين.

وسبحانه عن مشابهة مخلوق.

وسبحانه عن نسبةٍ أو ولد.

وسبحانه عن ظلمٍ أو عبث.

وسبحانه عن كل خاطرٍ يمر بالقلب ويظن أنه أحاط بجلاله.

إذا ضاقت العبارة عن مقام التنزيه، أنقذها التسبيح.

حدود الفتنة: لن تضلوا إلا من اختار طريق الجحيم
 من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ﴾
 ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾.
 للبابل ضجيج، لكنه ليس مطلق القدرة.

وللفتنة سحرها، لكنها لا تنتزع من الله عبداً أخلصه لنفسه. لا يستطيع المضلون أن يفتنوا
 كل قلب، ولا أن يطفئوا كل بصيرة. إنما تنفذ الفتنة إلى نفسٍ فتحت لها منفذاً، وآثرت
 الهوى، وسلكت بإرادتها الطريق المؤدي إلى الجحيم.

وهذا يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن الذي يرى كثافة الفتن حوله. ليست سلامتك
 مرهونة باختفاء الباطل من العالم، بل بصدق لجوئك إلى الله. قد تعيش بين أمواج
 متلاطمة، ويبني الله في داخلك سفينة.

ليس المطلوب أن تنتظر زمناً بلا فتنة كي تستقيم، فذلك الزمن قد لا يأتي. المطلوب أن
 تقيم في قلبك من التوحيد ما يجعل الفتنة تمر حولك ولا تستوطنك.
 ثم تنطق الملائكة بحقيقة العبودية:

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ﴾.

تعود السورة إلى مطلعها: الصفوف نفسها، والنظام نفسه، والتسبيح نفسه.
 كل ملك يعرف مقامه، فلا يتجاوزه. لا يدعي شيئاً من خصائص الربوبية، ولا يأنف
 من موضع العبودية. وهذا ردٌّ من داخل عالم الملائكة على من عبدوهم أو نسبوهم إلى
 الله: الذين جعلتموهم آلهة أو بناتٍ لله ليسوا إلا عباداً صافين مسبحين.
 ﴿لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾.

ما أجمل أن يعرف الإنسان مقامه!

كثيرٌ من شقاء النفس يولد من تجاوز المقام: عبدٌ يريد أن يحيط بأسرار القدر إحاطة الرب، ومخلوقٌ يريد أن يسيطر على المستقبل، ومحدودٌ يريد أن يفهم كل الحكمة قبل أن يطيع، وإنسانٌ يريد أن يملك قلوب الناس وأرزاقهم ومصائرهم.

السكينة تبدأ حين تعرف أنك عبد.

عليك السعي، وليس عليك ضمان النتائج.

عليك البلاغ، وليس عليك فتح القلوب.

عليك التوبة، وليس عليك أن تعيد كتابة الماضي.

عليك الطاعة، والله التدبير.

حين يقف الإنسان في مقامه الصحيح يستقيم الكون في قلبه. أما حين يحاول أن يحتل مقاماً ليس له، يبدأ القلق؛ لأنه يحمل نفسه ما لا تطيق، ثم يعترض على الحياة لأنها لم تستجب لسيطرته الموهومة.

الملائكة عظماء؛ لأنهم لا يستكبرون عن مقام العبودية. يصطفون ويسبحون، ولا يرون في الطاعة انتقاصاً. وأما الإنسان فقد يتخيل الحرية في الخروج من الصف، ثم يكتشف أنه لم يتحرر من العبودية، بل انتقل من عبادة الله إلى عبادة الهوى.

كانوا يمتنون الكتاب، فلما جاءهم كفروا به
 من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾
 ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿لَكَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾
 ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قبل مجيء الوحي كانوا يمتنونهم. كانوا يزعمون أنهم لو جاءهم كتابٌ كما جاء السابقين لكانوا
 أهدى منهم وأشدَّ إخلاصًا. فلما جاءهم الذكر لم تكن المشكلة في غيابه، بل في أنه طلب
 منهم أن يتغيروا.

ما أسهل الإيمان بالفرص الغائبة!

يقول الإنسان: لو عشت زمن الأنبياء لاتبعتم. ولو رأيت الآية لآمنت. ولو تيسرت لي
 الظروف لأطعت. لكنه حين تأتیه فرصة الطاعة في صورتها الحاضرة يتردد؛ لأنها لا
 تأتي غالباً بالصورة البطولية التي تخيلها، بل تأتي تكليفاً يجرح هوى النفس.

قد يتنى المرء عملاً عظيماً للدين، ثم يبخل بكلمة حق صغيرة.

ويتخيل أنه سيصبر على بلاءٍ كبير، ثم يسقط أمام أذى يسير.

ويقول: لو اتضح لي الطريق لاتبعته، فإذا اتضح خشي خسارة قريبة.

إن صدقك لا يقاس بما تتخيل أنك ستفعله في ظرفٍ غائب، بل بما تفعله الآن بما بين
 يديك من نور.

لقد جاءهم الذكر الذي تمنوه، فكفروا به؛ لأنهم أحبوا صورة أنفسهم كطالبي حق، ولم
 يحبوا الحق حين طالبهم بالتسليم. ومن أخطر خدع النفس أن تستمتع بالتطلع إلى الهداية،
 من غير أن تسمح للهداية أن تعيد تشكيل حياتها.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

تهديدٌ موجز، لا يحتاج إلى تفصيل. فالمستقبل الذي أنكروه يحمل لهم المعرفة التي
 رفضوها، لكنها معرفةٌ تأتي بعد انقضاء زمن النجاة.

كلمة الله السابقة: جند الحق هم الغالبون
 من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾
 ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ
 الْغَالِبُونَ﴾.

بعد قصص نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس، تأتي هذه الآيات كأنها
 الخلاصة التي كانت تتحرك في أعماق القصص كلها.
 لقد سبقت كلمة الله.

وقبل أن يبدأ الصراع كانت نهايته في علم الله محسومة: رسله منصورون، وجنده غالبون.
 لكن النصر في ميزان القرآن أعمق من صورة عاجلة. فقد يؤذى الرسول، ويُحاصر
 المؤمن، ويمتد للباطل زمن، غير أن الرسالة التي تحمل الحق لا تهزم في عاقبتها. قد يخسر
 جند الله جولة بسبب تقصيرهم أو ابتلائهم، لكن الحق الذي انتسبوا إليه لا يخسر
 الحرب الأخيرة.

نوح ظل قروناً بين التكذيب، ثم نُصر.
 إبراهيم أُلقي في النار، ثم نُصر.
 موسى وقف والبحر أمامه وفرعون وراءه، ثم نُصر.
 لوط أُخرج من قريته، ثم نُصر.
 ويونس دخل بطن الحوت، ثم أعاده الله إلى رسالته.

لم يكن النصر دائماً منع البلاء، بل كان أحياناً المرور من خلاله إلى مقام أعلى.
 هذه الحقيقة تبني في القلب جدار اليقين أمام الفتن. فالمؤمن لا يزن وعد الله بمشهد
 واحد، ولا يستعجل النهاية وهو لا يزال في منتصف القصة. قد يرى الباطل متقدماً،
 لكنه يعلم أن ما يراه لقطة، وأن كلمة الله تشمل الرواية كلها.
 ومن هنا يأتي الأمر للنبي ﷺ:

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

ليس التولي هنا تخلياً عن البلاغ، بل إمهالٌ بعد إقامة الحجة، وتركٌ لهم إلى الوقت الذي تتكشف فيه العاقبة. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾؛ انظر إليهم بعين اليقين، لا بعين الانبهار بقوتهم الحاضرة.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

أبصر الآن بنور الوحي، وسوف يبصرون هم حين يصبح الخبر واقعاً. وما أعظم الفرق بين البصيرتين: بصيرة الإيمان التي تهدي صاحبها قبل وقوع المصير، وبصر الاضطرار الذي لا يفتح إلا عندما تغلق أبواب العمل. ثم يستعجلون العذاب:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۖ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

كانوا يستعجلونه تهكماً، كما لو أن تأخره دليلٌ على استحالته. لكن إمهال الله ليس عجزاً، بل رحمةً وحكمة. يعطيهم وقتاً للرجوع، فإذا أصروا وجاء الأجل كان صباحهم بأثماً. الصباح الذي اعتاد الناس أن يربطوه بالنور والبداية يتحول هنا إلى لحظة نهاية: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾. لأن الأزمنة لا تحمل بشارتها في أسمائها، بل فيما يلقيه الإنسان فيها. قد يطلع الصباح على جسدٍ مستيقظ وقلبٍ ميت، وقد يهبط الليل على مؤمنٍ قائم فيكون ليله أوسع نوراً من النهار. ثم يتكرر الأمر:

﴿وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

والتكرار هنا تثبيت. فالنفس البشرية قد تحتاج أن تسمع الوعد مرةً بعد مرة، لا لنقص في صدق الوعد، بل لكثافة الواقع الذي يحجب الرؤية. حين يطول الطريق، أعد على قلبك كلمة الله. وحين يعلو الضجيج، أعد على قلبك كلمة الله. وحين يبدو جند الباطل أكثر عدداً وعدةً، تذكر أن الغلبة لا يقررها ظاهر اللحظة: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

ختم التسبيح: حين تنتهي الرحلة عند تنزيه الله
من قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ إلى نهاية السورة
تصل السورة إلى خاتمتها، فتجمع الرحلة كلها في ثلاث جمل:
﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾.

تسبيح.

فسلام.

فحمد.

تنزيه لله، وتكريم للرسول، واعتراف بالنعمة.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾.

وفي إضافة الرب إلى النبي ﷺ: ﴿رَبِّكَ﴾ قرب وموانسة. هذا الرب العظيم، رب
السموات والأرض ورب المشارق ورب العزة، هو ربك الذي يراك وأنت تواجه
التكذيب.

ليست العظمة الإلهية بُعداً عن العبد، بل مصدر أمانه. ورب العزة لا يترك رسوله في
أيدي المستكبرين، ولا يجعل مصير رسالته رهين مكرهم.

﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾.

العزة كلها له، وما في أيدي الخلق منها عارية مؤقتة. فن طلبها بمعصيته أذله ما طلب
العزة به، ومن ابتغها عند الله رفعه ولو اجتمع الناس على خفضه.
إن البشر يتنازعون ظلال العزة، أما أصلها فعند الله. يطلبها قوم في المال، وآخرون في
المنصب، وغيرهم في الانتماء إلى قوة غالبية. لكن كل عزة انفصلت عن رب العزة تتحول
إلى خوف: يخشى صاحب المال زواله، وصاحب السلطة سقوطه، وصاحب الشهرة
نسيان الناس له.

أما العزة بالله فلا تقوم على امتلاك شيء، بل على ألا يمتلكك شيء دون الله.
﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

سبحانه عن أوهام المشركين، وعن دعاوى النسب والولد، وعن كل نقصٍ ألصقته به العقول القاصرة. وسبحانه كذلك عن ظنون القلوب حين يشتد بها البلاء: عن أن ينسى عباده، أو يخلف وعده، أو يعجزه مكر، أو يخرج شيء عن حكمته.
كل السورة تفسيرٌ لهذا التسبيح.

حين نجا نوح، ظهر تنزهه سبحانه عن خذلان المؤمنين.
وحين نجا إبراهيم، ظهر تنزهه عن أن تغلب إرادته النار.
وحين فُدي الغلام، ظهر كمال حكمته ورحمته.
وحين غرق فرعون ونجا موسى، ظهر أن سلطان الطغاة لا ينازع سلطانه.
وحين خرج يونس من الحوت، ظهر أن رحمته تصل إلى أضيق الأماكن.
ثم:

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾.

بعد أن فرقت السورة أسماءهم في محطاتها، جمعهم في سلامٍ واحد. سلامٌ على نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس، و سلامٌ على كل رسولٍ حمل نور الله في وجه ظلام قومه.

لقد شتمهم المكذبون، فسلم الله عليهم.
واتهموهم بالجنون والسحر والكذب، فشهد الله لهم.
وأرادوا نحو آثارهم، فنخلد الله أسماءهم.
إن سلام الله هو الحكم الأخير الذي تحي أمامه أحكام البشر. وما على حامل الحق أن يستهلك روحه في ملاحقة كل اقتراء، إذا كان يعلم أن الله يرى صدقه، وأن الكلمة الأخيرة ليست للضعيج.

ثم تختتم السورة:

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الحمد بعد رؤية الرحلة كلها.

الحمد لله على صفوف الملائكة التي تكشف نظام الكون.

والحمد لله على الوحي الذي حرس الغيب من عبث الشياطين.

والحمد لله على البعث الذي يمنع الحياة أن تكون عبثاً.

والحمد لله على الجنة التي لا يضيع معها تعب المخلصين.

والحمد لله على النجاة بعد الكرب العظيم.

والحمد لله على البلاء الذي يطهر القلب.

والحمد لله على الفداء بعد التسليم.

والحمد لله على الشجرة التي تنبت للمكروب في العراء.

والحمد لله على كلمته السابقة بالنصر.

إن الحمد في ختام السورة ليس ثناءً منفصلاً عن أحداثها؛ بل هو النتيجة التي يصل إليها

القلب حين يرى الحكمة ممتدة بين أول القصة وآخرها. قد لا يستطيع أن يحمد في

منتصف المشهد لأنه لا يزال يرى الجرح وحده، فإذا اتسعت رؤيته علم أن يد الرحمة

كانت تعمل حتى في الموضع الذي ظنه خالياً منها.

الخاتمة

حين يصطف القلب بعد أن كان مبعثراً

بدأت سورة الصافات بصفوف الملائكة:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾.

وانتهت بتسبيح رب العزة وحمد رب العالمين.

وبين البداية والنهاية كانت السورة تعيد ترتيب صفوف القلب.

وضعت التوحيد في المقدمة، لأن كل شيء بعده فرع عنه. ثم كشفت زيف الشرك،

وعزت سخرية المنكرين، وأقامت القيامة أمام العين، وأسمعنا خصام أهل النار، وأرطنا

طمأنينة أهل الجنة. ثم مرت بنا في موكب من الأنبياء، كأنها تقول: هذا هو التوحيد

حين يتحول من عقيدة في الذهن إلى حياة.

كان التوحيد في نوح صبراً طويلاً لا تكسره قلة المستجيبين.

وكان في إبراهيم فأساً تكسر الأصنام، وخطوةً تدخل النار، وهجرةً تترك الوطن، وسكيناً توضع على موضع المحبة.

وكان في الغلام الحليم رضا واعياً بأمر الله.

وكان في موسى وهارون مواجهةً للطغيان واستناداً إلى الكتاب.

وكان في إلياس صوتاً وحيداً أمام وثنيةٍ موروثه.

وكان في لوط طهارةً تقف في وجه انقلاب الفطرة.

وكان في يونس تسبيحاً يشق ظلمات البحر والحوت والنفس.

وهكذا لا يبقى التوحيد كلمةً ساكنة. إنه يتحرك في كل موضع بصورةٍ تناسبه: مرةً صبراً، ومرةً مواجهةً، ومرةً هجرةً، ومرةً تضحيةً، ومرةً توبةً، ومرةً تسبيحاً.

والقلب الذي يدخل السورة صادقاً لا يخرج منها كما دخل.

يدخل وفي داخله أشياء كثيرةٌ متزاحمة، فتعلّبه الصافات أن يصطف.

يدخل خائفاً من كثرة أهل الباطل، فتخبره أن الأكثرين قد يضلون، وأن جند الله هم الغالبون.

يدخل متعلقاً بأسباب النجاة، فتريه سفينة نوح، ونار إبراهيم، وبحر موسى، وحوت

يونس؛ ليعلم أن السبب لا ينحي بذاته، وأن المستحيل يتغير حين يأذن رب العالمين.

يدخل مثقلاً بحبوباته، فتوقفه عند الجبين الموضوع للذبح، وتسأله: ما الذي لا تستطيع أن تسلمه لله؟

ويدخل متألماً من طول الطريق، فتسمعه سلام الله على المرسلين، ليعرف أن التعب

الذي يكون لله ينتهي بالسلام.

إن جدار اليقين الذي تبنيه السورة لا يقوم على تجاهل الفتن، بل على رؤية ما وراءها.

إنها لا تقول إن الطريق بلا نار، بل تقول إن للنار رباً. ولا تقول إن البحر لن ينشق

أمامك، بل تقول إن البحر عبدٌ لأمر الله. ولا تقول إنك لن تدخل ظلمة الحوت، بل

تقول إن التسبيح يستطيع أن يفتح في الظلمة باباً.

اليقين ليس أن تضمن الطريق الذي تريد، بل أن تثق بالله أياً كان الطريق الذي يختاره.

وهذه هي الهداية الأخيرة التي تركها الصافات في النفس: أن ينتظم القلب في صف
العبودية، فلا يتقدم بين يدي الله، ولا يهرب من مقامه، ولا يجعل محبوباً فوق أمره،
ولا يزن وعده بضجيج الواقع.

فإذا اصطف القلب، هدأت فيه الفوضى.

وإذا عرف مقامه، سقط عنه قلق السيطرة.

وإذا سبّح رب العزة، تنزه إيمانه عن سوء الظن.

وإذا سلّم على المرسلين، أدرك أنه امتدادٌ لموكبٍ طويل، لا فردٌ تائه في طريقٍ مهجور.

وإذا قال: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لم يكن يحمّد الله على النعمة وحدها، بل على المنع
والعطاء، وعلى الابتلاء والفداء، وعلى الطريق وإن جهل بعض حكمته؛ لأنه علم من
السورة أن اليد التي تدبر مصائر النجوم هي نفسها التي تنبت للمكروب شجرةً من يقطين.

هكذا تنتهي سورة الصافات، ولا ينتهي أثرها:

صفوفٌ في السماء تدعو قلبك إلى الانتظام.

وأنبياءٌ في التاريخ يدعونك إلى الثبات.

وقيامةٌ في الأفق تدعوك إلى العمل.

وربُّ العزة فوق ذلك كله يقول لعباده المرسلين، ولكل من صدق في السير على آثارهم:

إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۖ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۖ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾.

المحلة الأولى

حين تصطفُ الملائكة ويتعلم القلب معنى النظام

المحلة الثانية

السماء المحروسة: حين لا يكون الغيبُ ساحةً لأوهام البشر

المحلة الثالثة

الطين الذي يجادل خالق النجوم

المحلة الرابعة

حين تسقط الزعامات ويتخاصم أهل الضلال

المحلة الخامسة

الكلمة التي استكبروا عنها

المحلة السادسة

عباد الله المخلصون: حين يصير الرزق كرامةً لا فتنة

المحلة السابعة

شجرة تنبت في أصل الجحيم

المحلة الثامنة

النداء الذي اخترق طوفان التكذيب

المحلة التاسعة

إبراهيم صاحب القلب السليم

المحلة العاشرة

الفأس التي حطمت وهماً قبل أن تحطم حجراً

المحطة الحادية عشرة

الهجرة إلى الله: حين يترك المؤمن مكاناً ولا يفقد وطنه

المحطة الثانية عشرة

حين بلغ السعي موضع الذبح

المحطة الثالثة عشرة

الفداء: حين يعيد الله النعمة بعد أن يطهر موضعها في القلب

المحطة الرابعة عشرة

موسى وهارون: حين يثقل الكرب وتأتي النجاة

المحطة الخامسة عشرة

سلامٌ على موسى وهارون: جزاء الإحسان وصدق العبودية

المحطة السادسة عشرة

إلياس: النداء في وجه عبادة «بعل»

المحطة السابعة عشرة

سلامٌ على إلياس: حين يبقى صوتُ الموحد بعد سقوط المعبد

المحطة الثامنة عشرة

لوطٌ والقرية التي انقلب فيها ميزان الفطرة

المحطة التاسعة عشرة

يونس: حين تضيق الأرض ولا يضيق باب التسبيح

المحطة العشرون

حين ينسب الوهمُ إلى الله ما يأنف أصحابه منه

المحطة الحادية والعشرون

حدود الفتنة: لن تضلوا إلا من اختار طريق الجحيم

المحطة الثانية والعشرون

كانوا يَتَمَنُّونَ الكِتَابَ، فلما جاءهم كفروا به

المحطة الثالثة والعشرون

كلمة الله السابقة: جندُ الحق هم الغالبون

المحطة الرابعة والعشرون

ختام التسبيح: حين تنتهي الرحلة عند تنزيه الله